الخلفاء الراشدين ﷺ حياتهم
وسير عصرهم

اعداد

.م سماح نوري فاضل. مرحلة ثانية قسم التاريخ. ك١

جامعة ديالى

كلية التربية الاساسية

الفصل الاول

. الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ :

- اسمه وألقابه :

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن تيم القرشي ، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في مرة ، وينسب أبو بكر ﷺ الى تيم قريش فقيل : التيمي[١] ، وكان يسمى بالجاهلية عبد الكعبة ، فسماه النبي ﷺ بـ(عبد الله)[٢] .

ومن ألقابه ﷺ العتيق ، قيل : لحسن وجهه أو لعتقه من النار[٣] ، وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق لأنه بادر الى تصديق الرسول ﷺ ولازم الصدق ، لاسيما ما اشتهر به صبيحة يوم الاسراء[٤] ، وأبوه عثمان لقبه أبو قحافة أسلم يم فتح مكة ، أما أمه فهي سلمى بنت ضمر بن عمرو بن كعب وتكنى أم الخير[٥] .

- مولده وحاله في الجاهلية :

س: ما سبب عدم شرب ابا بكر للخمر في الجاهلية؟

ولد بمكة بعد عام الفيل بعامين واشهر ، وكان عالماً بأنساب العرب وأخبارهم ، وقد نشأ بمكة ولا يخرج منها إلا للتجارة[٦] .

ومما اشتهر به أبا بكر في الجاهلية العفة والخصال الحميدة ولم يشرب الخمر التي كانت متفشية في المجتمع الجاهلي ، وقيل لأبي بكر في مجمع من أصاحب رسول الله ﷺ : هل شربت الخمر؟ ، فقال : أعوذ بالله ، فقيل : ولمَ؟ ، قال : كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي[٧] .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٤٢٤-٤٢٥ ؛ ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١ ، ص٢٩٤ ؛ ابن حجر ، الاصابة ، ج٢ ، ص١٥١ .

(٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١ ، ص٢٩٤ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص٢٤٩ .

(٤) العصامي ، سمط النجوم ، ج١ ، ص٤٢٠ .

(٥) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٥ ، ص٤٢٦ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤١ .

(٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٢ .

(٧) العصامي ، سمط النجوم ، ج١ ، ص٤٣٣ .

عمل با بكر بزازاً يتاجر بالثياب ، وله رأس مال كبير ، وكانت إليه الاشناق وهي الديات والمغرم ، وهذه اشتهر بها قبل اسلامه[١] .

- اسلامه :

س: هل ابا بكر ﷺ أول من أسلم من الرجال أم سبقه أحد؟

يقول الكاتب رفيق العظم في كتابه (اشهر مشاهير الاسلام) عن اسلام أبي بكر ﷺ : " اللهم ان امرأ نشأ بين الأوثان حيث لا دين زاجر ، ولا شرع للنفوس قادر ، وهذا مكانه من الفضيلة واستمساكه بعرى العفة والمروءة لجدير بأن يتلقى الاسلام بمليء الفؤاد ويكون من أوائل المؤمنين بهادي العباد ، مبادراً بإسلامه رغم أنوف أهل الكبر والعناد "[٢] .

فقد كان أبي بكر ﷺ من أصحاب القيم الرفيعة والأخلاق الحميدة في المجتمع المكي قبل ظهور الاسلام ، فلم يعلم لأحد قد عاب أبا بكر بعيب ، الى جانب ذلك أنه قد صاحب النبي محمد ﷺ ، وهكذا وبمجرد ما ذكر له أن الله أرسله نبياً بادر الى تصديقه دون تردد[٣] .

وذكر أن أبا بكر لقي النبي ﷺ فقال : أحقاً ما تقول قريش يا محمد من تركك ألهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آبائنا؟ ، فقال رسول الله ﷺ : بلى إني والله رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك الى الله بالحق فو الله انه حق وادعوك يا ابا بكر الى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غيره والمولاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن فلم يقر ولم ينكر ،فاسلم وكفر الاصنام واقر بحق الاسلام ورجع أبو بكر وهو مؤمن[٤] .

وسُئل ابن عباس ﷺ : أي الناس كان أول إسلاماً؟ ، فقال : أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وأول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب ، وخديجة أول من أسلمت

---

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٥ ، ص٤٢٧ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج٥ ، ص٢٧٦ ؛ ابن الاثير ، اسد الغابة ، ج٢ ، ص١٣٨ .

(٢) رفيق العظم ، اشهر مشاهير الاسلام ، ج١ ، ص١٢ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٢ ، ص٤٧٣ .

(٤) ابن اسحاق ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص٤٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٣ ، ص٢٧ .

من النساء[١] ، وذكر ابن كثير : أن علي بن أبي طالب أسلم قبل أبا بكر وإن أبا بكر أول من أظهر إسلامه[٢] .

وأخذ أبوبكر الصديق ﷺ من حينها دوره في نشر الدعوة ، فذهب الى عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص فأسلموا ، ثم جاء في الغد يدعو عثمان بن مضعون وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبى سلمى بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم فأسلموا على يده ﷺ ، وإنه اعتق وفك رقاب عدد من العبيد منهم بلال بن رباح ، وكان أول خطيب دعا الى الله ورسوله والنبي ﷺ جالس[٣]

- صحبته ﷺ :

صحب أبو بكر الصديق ﷺ النبي ﷺ من حين إسلامه الى حين وفاته ، لم يفارقه في سفر ولا في حضر ، إلا فيما أذن له ﷺ في الخروج فيه من حج وغزو ، وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ وهاجر معه وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله ، وهو رفيقه في الغار ، قال تعالى : ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٤] ، وقد نصر ابا بكر رسول الله ﷺ في مواضع عدة وثبت يوم أُحد وحُنين وقد فر الناس[٥] .

وثار مرة المشركون على أبو بكر الصديق ﷺ وعلى المسلمين في المسجد الحرام فضربوه ضرباً شديداً ، إذ دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه على وجهه وبطنه حتى لا يعرف وجهه من أنفه وأصبحوا بنو تيم قبيلة أبي بكر لا يشكون في موته ، وعندما آفاق أبا بكر أول ما نطق به : ماذا فعل رسول الله ﷺ ؟ ، قالت أمه : سالم صالح ، قال : أين هو؟ ، قالت : في دار بني الأرقم ، قال : فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً ولا شراباً إلا أوتي رسول الله ، وخرج متكأً على أمه وجارتها حتى أذا دخلا على رسول الله

---

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١ ، ص٢٩٤ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٣ .

(٦) البداية والنهاية ، ج٢ ، ص٤٧٢ .

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٢ ، ص٤٧٤ .

(٢) سورة التوبة الآية : ٤٠ .

(٣) الطبراني ، المعجم الكبير ، ج٢ ، ص١٠٦ ؛ النووي ، تهذيب الاسماء واللغات ، ج٣ ، ص٥٥ .

ﷺ فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة[١] .

- مرض رسول الله ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى :

س: كيف تلقى المسلمون خبر وفاة النبي محمد ﷺ ؟ وكيف كانت ردود الأفعال؟

أخذت طلائع التوديع لحياة النبي العظيم ﷺ تظهر وتتضح من خلال عباراته وأفعال ، إذ اعتكف في رمضان من السنة العاشرة للهجرة عشرين يوماً بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام، وتدارسه جبريل في هذا العام مرتين ، وقال في حجة الوداع :لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا[٢] .

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي ﷺ الى أُحد فصلى على الشهداء ، وخرج ذات ليلة الى البقيع فاستغفر لهم وقال : السلام عليكم يا أهل المقابر وبشرهم إنا بكم لاحقون[٣] .

وتشير الروايات الى أن مرضه ﷺ كان في أواخر شهر صفر سنة ١١هـ[٤] ، وكان قد ضعف عن الحركة ﷺ إذ لم يعد قادراً على إمامة المسلمين في الصلاة فطلب من أبي بكر ﷺ أن يؤم المسلمين في الصلاة ، وكان مرضه ثلاثة عشر يوماً ، ابتدأ من يوم الاربعاء في أواخر شهر صفر وانتهى بوفاته يوم الاثنين في ١٢ ربيع الاول سنة ١١هـ الموافق لسنة ٦٣٢م على أشهر الروايات[٥] .

إن وفاة الرسول ﷺ شكل صدمة مفاجئة أذهلت جل الصحابة فمنهم من رفض الأمر ولم يستوعبه مثل عمر بن الخطاب ﷺ ومنهم ن خرس ولم يتكلم من شدة الهول ، إلا أن أبو بكر الصديق ﷺ وقف خطيباً في الناس فقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت ثم تلى الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

---

(٤) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد ، ج٢ ، ص٣٢٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٢ ، ص٤٧٤ .

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج٨ ، ص١٦٠ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٤٠٢ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٤ ، ص٤٤٣ ؛ المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص٣٩٣ .

(٣) ابن هشام السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٦٤٢ ؛ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج٣ ، ص٢٠٦ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص٢٠٦ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٢٢٠

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1] .

فلما سمع الناس هذه الآية كأنما يسمعوها لأول مرة ، فأخذوا يرددونها حتى عمر ﷺ قال : والله ما أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[2] .

لقد توفى رسول الله ﷺ والتحق بالرفيق الأعلى بعدما بلغ رسالة ربه ، فنقل العرب من الشرك الى دين الله الاسلام وجاهد بلسانه وسيفه ولم يغادر قومه ويرتحل إلا وقد وضع بين أيديهم رسالة سامية لا تقتصر على العرب وإنما تسعى لهداية بني البشر كافة ، وإن الله عز وجل قد هيأ لهذا النبي الكريم ثلة خيرة كانوا على مستوى الظروف والمرحلة ، فهاجروا لنصرته ونصروه لهجرته فنعم المهاجرين والانصار ، وكانت نهاية حياة الرسول ﷺ بداية عصر جديد على يد صحابته لإكمال ما بدأه نبيهم ﷺ .

- الخلافة :

من المعلوم أن وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع السماوية وتقريرها بين الناس على وجه يجمع اليها شملهم على توحيد الله سبحانه وتعالى ولزوم أوامره ونواهيه لتحقيق العبادة لله والعدالة بين الناس ، وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه إلا الحفاظ وحماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنة نبيه .

وعلى ذلك يمكن اعتبار أن الخلافة رئاسة دنيوية لترتيب أمور الادارة والسياسة على وفق إطار الدين والشريعة ، وهو ما تحقق في عهد الخلفاء الراشدين ، فكان من مقاصد المسلمين من المهاجرين والانصار بعد وفاة النبي ﷺ اجتماعهم على كلمة التوحيد وتنصيب خليفة يجمع الأمة على كتاب الله وسنة نبيه ، والأخذ بالقوة على أيدي ذوي العبث بالنظام ومحاربة الاسلام إلا أنهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الأمر اختلافاً ليس على أساس المصالح الخاصة بقدر ما هو الحفاظ على المكاسب الاسلامية ، فكان اختيار أبو بكر الصديق ﷺ لهذه المرحلة[3]

---

(٥) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٦٥٦ ؛ البخاري ، التاريخ الكبير ، ج١ ، ص٢٠٢ .

(٢) رفيق العظم ، أشهر مشاهير الاسلام ، ج١ ، ص١٧-١٨ .

- اجتماع السقيفة وإعلان أبو بكر الصديق ﷺ خليفة للمسلمين:

س: كيف ناقش مؤتمر السقيفة مسألة اختيار الخليفة؟

سقيفة بني ساعدة : وهي ظلة غير واسعة في أطراف المسجد النبوي من ناحية الشمال ، تعود لبني ساعدة من أحياء الخزرج كانوا يجلسون تحتها ، اجتمع فيها الأنصار يوم وفاة الرسول ﷺ لمناقشة ترشيح خليفة للمسلمين(١).

وتشير الروايات التاريخية ان خبر اجتماع الانصار في السقيفة وصل الى المهاجرين ومنهم عمر بن الخطاب الذي أسرع الى دعوة أبو بكر لحضور هذا الاجتماع ، وذهبا وفي الطريق لقيا أبو عبيدة بن الجراح فصحبهما الى السقيفة(٢) .

وبعد وصولهم وجدوا القوم يناقشون ترشيح سعد بن عباد زعيم الخزرج للخلافة إذ كان الانصار يرون أحقيتهم بهذا الأمر فهم أهل المدينة وأنصار الاسلام(٣) .

عندها تدخل أو بكر الصديق ﷺ قائلاً : إن المهاجرين من قريش هم اولى بخلافة رسول الله ﷺ فهم أول عبد الله في الارض ، واول من آمن بالله ورسوله وهم أولياءه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ،و أنتم يا معشر الأنصار ما منا من ينكر فضلكم في الدين ولا سابقتكم العظيمة في الاسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحداً بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح من الأنصار : فمنا أمير ومنكم أمير ، وحدثت مشادة وعلت الأصوات ، عندها قال أبو عبيدة : أيها الأنصار أنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير ، فقال : بشر بن سعد أبو النعمان من الأنصار :يا معشر الانصار أنا والله لئن كنا أولى فضيلة في الجهاد وسابقة في هذا الدين ، وما أردنا إلا رضا ربنا وطاعة نبينا فما ينبغي لنا أن نستبطل على الناس بذلك فإن محمد ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى .(٤)

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٩٨ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٦٥٦ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٠٢ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٢٠

٤) المصدر نفسه ،ج٣،ص٢٢١

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا ، فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فأنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، فمن ذا ينبغي له أن يقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك[١] .

وقد سبقهما في المبايعة بشير بن سعد ، فلما رأت الأوس ما صنع بشير قاموا الى أبو بكر ﷺ وبايعوه وأتت أسلم بجموعها وبايعت[٢] .

وفي اليوم التالي لبيعة السقيفة جلس أبو بكر الصديق ﷺ في المسجد النبوي لتلقي البيعة ، فبايعه عموم المهاجرين والأنصار بيعة الخلافة[٣] .

أعمال الحليفة أبي بكر الصديق ﷺ :

على الرغم من قصر مدة خلافة أبي بكر الصديق ﷺ إذ لم تزد على سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، إلا أنها كانت مليئة بالأعمال الجليلة التي تحتاج الى سنوات طوال لإنجازها في ترسيخ معاني الاسلام في قلوب الناس ،وإن تطبيقه العملي وإصراره على ما اعتقد به كان يدل على وعي تام بالاسلام وقيمه الراقية ، والتي رسخت دعائم الاسلام ووحدت أركانه ، لذا يعد الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ من ذوي الفضل في تثبيت ركائز هذا الدين لاسيما محاربة المرتدين.

فقد شهدت خلافته ﷺ أمور وإجراءات عدة تمثلت في إنفاذ جيش اسامة ومقارعة المرتدين وحروب التحرير والفتوح .

- خطبة الصديق الاولى :

س: ما ملامح الخطاب الأول للخليفة أبو بكر الصديق ﷺ ؟

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٣٥٩ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٣٤ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص١٢٣-١٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢١٠ .

جاء الخطوة الأولى بعد البعية العامة في المسجد خطبة أبو بكر ﷺ : فقام فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو اهله وقال : فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني إن اسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوماً الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم[1] .

ان مضمون الخطاب الأول للخليفة احتوى على الأمور الآتية :

١. إن الخليفة هو شخص من عامة المسلمين وليس بالضرورة أن يكون أفضلهم (ولست بخيركم) .
٢. أن يرتبط اتباع الخليفة ما أطاع الله ، فهو مقيد بالقرآن والسنة وما اجتهد به في هذا الاطار .
٣. شرط العدالة هو أساس الملك والحكم ، فكانت إشارة واضحة أن التعامل مع الناس سيكون على أساس الحقوق والواجبات .
٤. سيكون الجهاد ركناً أساسياً في سير عمل الدولة الاسلامية ومنهاجاً ثابتاً متى ما اقتضت الضرورة .
٥. دعوة المسلمين لمراقبة مؤسسات الدولة وعلى رأسها الخليفة واصلاح ما فسد (فإن أسأت فقوموني) .

. انفاذ جيش اسامة بن زيد :

س: لماذا أصر الخليفة على نفاذ جيش اسامة بن زيد في هذا الوقت؟

كان النبي ﷺ أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه اسامة بن زيد ليبعثه الى الشام فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته ﷺ .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٦٦١ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢١٠ .

ولما استقرت الخلافة لأبي بكر ﷺ أمر أن يخرج كل من هو في جيش اسامة الى معسكره فخرجوا كما أمرهم ، وكان بعض أفراد الجيش من الصحابة طلبوا من عمر بن الخطاب ﷺ أن يبلغ الخليفة أن يولي أمر الجيش أقدم سناً من اسامة ، فأخبر عمر ﷺ الخليفة بذلك المطلب ، ورد عليه أبو بكر الصديق ﷺ بغض قائلاً : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟ اذ بقيت القيادة لاسامة ، وخرج الصديق ﷺ يودع الجيش ماشياً وعلى رأسه اسامة ، ولما أراد اسامة أن ينزل ليركب أبو بكر قال له : والله لا نزلت ولا ركبت[١].

وأوصاهم الخليفة أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يغلوا ولا يمثلوا ولا يقتلوا طفلاً أو امرأة أو شيخاً وأن لا يحرقوا نخلاً ، ولا يقطعوا شجرة ولا يذبحوا شاة ولا بعيراً إلا للأكل ، وقال لهم : إذ مررتم بقوم تفرغوا للعبادة في الصوامع فدعوهم وما تفرغوا له[٢] .

ثم قال الصديق ﷺ لاسامة : إن رأيت أن تأذن لعمر بالمقام عندي حتى استعين برأيه على أمور المسلمين ، ثم سار اسامة فكان لا يمر بقبيلة انتشر فيها الارتداد إلا أرجعها ، لقد كانت الرهبة تشيع في أفئدت المتربصين بلاسلام شرا موقنين أن المسلمين لو لم يكونوا من القوة لما خرجوا في هذا الوقت بهذا لجيش الى الشام ، وقد عاد اسامة بعد أربعين يوماً ، وقيل : سبعين يوماً ، قام خلالها بحملات تعرضية خفيفة ضد قبائل قضاعة وآبل فسلم وغنم وعاد الى المدينة[٣] .

حروب الردة

س: هل دوافع أهل الردة كانت واحدة أم متنوعة؟

الردة : هو الرجوع عن الشيء الى غيره ، وهو الرجوع عن الاسلام وارتد فلان عن دينه اي كفر بعد اسلامه[٤] .

إن حرية العقيدة مكفولة في الاسلام ومقدمة الى الحد الذي لا يجوز العدوان عليها ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص١٢٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٢) الواقدي ، فتوح الشام ، ج١ ، ص٣ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ، ص٦٥ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٢٣ .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ص١٧٢ ؛ المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، ج١ ، ص٣٦١

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦ .

فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2] ، وقد أكد رسول الله ﷺ تلك الحرية في المدينة من خلال دستور المدينة حين اعترف لليهود أنهم يشكلون مع المسلمين أمة واحدة[3] .

ومن منطلق هذه الحرية الدينية التي يضمنها الاسلام ، اعطاء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسيحيين من سكان القدس أنفسهم وأموالهم وصلبنهم ولا يضار أحد منهم[4] ، فكل فرد حر في أن يعتقد ما يشاء ، وأن يتبنى لنفسه من الأفكار ما يريد ، حتى لو كان ما يعتقده أفكاراً الحادية ، فلا يستطيع أحد من أن يمنعه من ذلك طالما أنه يحتفظ بهذه الأفكار لنفسه ولا يؤذي الناس ، أما إذا حاول نشر هذه الأفكار التي تتناقض مع معتقدات الدين الاسلامي وتتعارض مع قيم الناس التي يدنون لها بالولاء ، فإن ذلك يكون قد اعتدى على حقوق أفراد هذا الدين . فقتل المرتد يكون لإثارة الفتنة والبلبة وتعكير النظام العام في الدولة الاسلامية .

أما أذا أرتد بينه وبين نفسه دون أن يثير فتن بين الناس في ذلك فلا أحد يستطيع أوله الحق أن يتعرض له بسوء ، فالله وحده المطلع على ما تخفي الصدور[5] ، ويقول الله عن هذا : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[6] ، وبشرح أبو داود في سننه عن ابن مسعود الحديث : " لا يحل دم مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله الا بإحدى ثلاث ، الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة "[7] .

إن حد الردة ليس لارتداده فقط وانما لإثارته الفتنة في صفوف جماعة المسلمين بغية النيل من الاسلام وأهله ، فصفة مفارقة الجماعة المقصود منها المحاربة .

---

(٢) سورة الكهف الآية : ٢٩ .

(٣) سورة الكافرون الآية : ٦ .

(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص٥٠١ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ، ص١٤٥.

(٦) محمود حمدي زقزوق ، الاسلام في مواجهة حملات التشكيك ، ص١٢٨-١٣٠ .

(٧) سورة البقرة الآية : ٢١٧ .

(٨) ابن حجر ، فتح الباري ، ج؟؟ ، ص؟؟ .

أما أهل الردة فقد كانوا أصنافاً ، فمنهم من ترك الاسلام جملة وتفصيلاً وعاد الى الوثنية وعبادة الاصنام ، ومنهم من ادعى النبوة أمثال مسيلمة وطلحة ، ومنهم من دعا الى ترك الصلاة ، وآخرين بقوا على الاسلام إلا أنهم امتنعوا عن أداء الزكاة[١] .

- ظهور مدعي النبوة :

بدأت طلائع الردة في أواخر عهد النبي ﷺ ، إذ ظهر من يدعي النبوة أمثال الاسود العنسي ومسيلمة الكذاب ، وأخذت هذه الظاهرة بالاتساع بعد وفاة الرسول ﷺ ، وفي الوقت نفسه ظهرت مجموعة أخرى من القبائل العربية المسلمة ترفض دفع الزكاة ، وهو ما أبلغوا به من خلال وفودهم على أبي بكر بعد توليه الخلافة .

من هنا قرر الخليفة ﷺ وئد الفتنة ومحاربة المرتدين حتى يردوا الى دينهم ، وقد أشار عمر بن الخطاب ﷺ الى عدم محاربة مانعي الزكاة حتى يتمكن الايمان في قلوبهم مخاطباً أبا بكر بذلك مستشهداً بالحديث النبي : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا الله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه، وحسابه على الله "[٢] .

فقال أبو بكر ﷺ : والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعه ، قال عمر ﷺ : فوالله ما أن شرح صدر أبو بكر فعرفت أنه الحق[٣] .

وبالتالي فقد تعاضد المرتدون وأتسع خطرهم وإن اختلفوا في دوافع وأسباب ردتهم فما كان إلا محاربتهم .

ومن أجل التوضيح لحركات وحروب الردة سنفصل الموضوع بالشكل التالي وفقاً للتسلسل الزمني :

---

(١) صالح احمد العلي ، الدولة في عهد الرسول ، ج٢ ، ص٤٤٦-٤٤٨ .

(٢) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٢ ، ص٥٠٧ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٣٨ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٢٩ .

- مدعي النبوة :

س: على الرغم من معرفة الناس بكذب هؤلاء ممن ادعوا النبوة إلا نهم اتبعوهم ، ما هي الاسباب الدافعة لذلك؟

لقد تزامن ظهور من أدعى النبوة مع نشاط الأقوام التي تمردت ضد الدولة والنظام السياسي في المدينة أو ما عرفوا بالمرتدين ، علماً أن هؤلاء المدعين ظهرت ادعاءتهم قبل وفاة النبي ﷺ إلا أنهم نشطوا بعد وفاته ومنهم :

١. الاسود العنسي :

هو عيهلة بن كعب المعروف بالأسود العنسي من عنس إحدى بطون قبيلة مذحج في اليمن[١] ، وكان كاهناً مشعوذاً قوي الشخصية ، يرى الناس الأعاجيب من حيله ، فتنبأ وأدعى النبوة ، وكان يزعم أن ملكين يأتيانه هما سحقياً وشريقاً ، زعم بنبوئته في حياة النبي ﷺ سنة (١٠هـ) ، ولم ينكر نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وإنما اعتبره نبياً أسوة به[٢] ، وذكر أنه كان معه شيطان وتابع له ، وهذا الشيطان كان يحرسه ويحيطه علماً ببعض الأمور ، ولم تذكر المصادر أنه وضع لأتباعه طقوساً أو فرائض ، وكان العنسي يضع خماراً على وجهه عادة الكهان ، لذا سمي بذو الخمار[٣] ، وفي هذه الاثناء وبينما الولاة الذين عينهم النبي ﷺ في بعض مدن اليمن يجمعون الصدقات ، جاءت كتب الأسود العنسي لهم ينذرهم أن يردوا ما بأيدهم فهو أولى به[٤] ، وهاجم الأسود العنسي نجران وصنعاء وسيطر عليهما وعين ولاة يحكمون باسمه[٥] ، لم يغفل النبي ﷺ أمر الأسود العنسي إلا أنه لم يرسل جيوشاً لمحاربته ، بل اعتمد على أهل اليمن في القضاء عليه[٦] ، وفعلاً تم اغتيال الأسود العنسي من خلال تعاون المسلمين مع بعض مستشاريه الذين سأموا أفعاله ، قد وصل خبر مقتله بعد مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ ، وقيل : أنه قتل

---

(١) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج٤ ، ص٨ .

(٢) السهيلي ، الروض الأنف ، ج١ ، ص٤١٩ ؛ البلخي ، البدء والتاريخ ، ج٢ ، ص١٩٢.

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣١٨ ؛ صالح احمد العلي ، الدولة في عهد الرسول ، ج٢ ، ص٤٦٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج١ ، ص٢٩٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٣٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٨٧ .

قبل وفاة النبي ﷺ بيوم أو يومين[١] ، استقرت الأوضاع في اليمن بعد مقتل العنسي حتى أشيع خبر وفاة النبي ﷺ ، فقويت عزيمة أتباع العنسي من جديد ومواصلة خروجهم على الدولة ، فاضطر أبو بكر ﷺ الى محاربتهم ، ويبدو أن دوافع ردة اليمن الثانية كانت رغبة بالاستقلال عن الدولة وعدم دفع الزكاة[٢] .

٢. طليحة الاسدي :

هو طليحة بن خويلد الاسدي ، أحد كهنة بني أسد ، وكان خطيباً وشاعراً ، وكان من ضمن وفد قبيلة بني أسد الذين قدموا الى المدينة سنة **(٩هـ)** لمقابلة النبي ﷺ ومبايعته والدخول في الاسلام[٣] ، وقد أدعى طلحة النبوة في أواخر حياة النبي ﷺ سنة **(١١هـ)** وإن وحياً ينزل عليه ، وقد أورد بعض الجمل المسجوعة على أنها كلام منزل مثل : " أن لك رحا كرحاء ، وحديثاً لا تنساه ، والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد ضمن قبلكم بأعوام ، يبلغن ملكنا العراق والشام "[٤] ، ولم يدعو طليحة اتباعه الى العودة العودة لعبادة الأصنام والراجح أن مرد ذلك بأن النبي ﷺ قضي على الوثنية في جزيرة العرب قضاءً تاماً ، إذ استقرت العقيدة على التوحيد في النفوس بشكل جعل التفكير في العودة الى الأصنام ضرباً من الهذيان[٥] ، لكنه أنكر الركوع والسجود في الصلاة وقال : : إن الله لم يأمر أن تمرغوا وجوهكم في الصلاة وأعبدوه قياماً الى غير ذلك ، وتبعه كثير من العرب عصبية ، فلهذا كان أكثر أتباعه من اسد وغطفان وطيء[٦] ، عمل النبي ﷺ نفس الأسلوب في محاربته للعنسي من خلال إرسال الرسل للناس للتحذير منه والدعوة الى مقاومته حتى ضيقوا عليه ، إلا أن خبر وفاة النبي ﷺ قد أتاح المجال له أن يجذب الى صفه الكثير من أبناء قبيلته وحلفائهم[٧] ، وسيرد ذكر تفاصيل نهاية طليحة في موضوع آخر ضمن حروب الردة .

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١١٤ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٣٦ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١١٢ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص٣٥٩ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص١٦٤-١٦٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٣٦٨.

(٥) طقوش ، تاريخ الخلافة الراشدة ، ص٥٥ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٤١ .

(٧) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص١٨٤-١٨٥ ؛ الملاح ، الوسيط ، ص٣١١ .

٣. مسيلمة الكذاب :

هو مسلمة بن حبيب بن ثمامة من بني حنيف باليمامة ، وقد سمي مسيلمة تصغيراً وتحقيراً له[١] ، وكان خطيباً وشاعراً وكاهناً[٢] ، وقد تعلم الحيل والشعوذة من بعض كهان بلاد العرب والعجم ، قدم الى المدينة في بضعة عشر رجلاً من بني حنيفة برئاسة سلمى بن حنظلة لمقابلة النبي ﷺ وإعلان إسلامهم ، وقد اشترطوا مقابل دخولهم في الاسلام أن يلوا الأمر من بعد النبي ﷺ كونهم أضخم القبائل العربية وأوفرهم حظاً بالمنعة والجاه ، وقد رفض طلبهم النبي ﷺ فأسلم الوفد دون تحقيق غايته[٣] ، وكان من بني حنيفة شخص اسمه الرجال بن عنفوة قد تعلم القرآن وسار معلماً لبني حنيفة ، إلا أنه أرتد وأخبر الناس أنه سمع رسول الله ﷺ بشرك مسيلمة في الرسالة فكانت أعظم فتنة في بني حنيفة[٤] ، وقد ادعى مسيلمة النبوة في السنة العاشرة للهجرة ، وبعد أن وطد نفوذه في اليمامة أرسل رسالة في أواخر سنة عشرة للهجرة الى النبي ﷺ جاء فيها : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله السلام عليك ، أما بعد فإني قد اشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريش قوم يعتدون ، فكتب له رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب : السلام على من أتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[٥] ، وحاول مسيلمة أن يقلد أسلوب القرآن من خلال بعض عبارات السجع منها : : " لقد أنعم على الحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى "[٦] ، وقد أحل مسيلمة لأتباعه شرب الخمر ، واسقط عنهم بعض فرائض الصلاة[٧] ، وقد تفاقم خطر مسيلمة وأتباعه بعد وفاة النبي ﷺ إذ استطاع أن يجمع معظم رجال قومه حوله بفعل عامل العصبية ، فعلى ما يبدو أن المحرك الرئيسي الذي دفع مسيلمة لادعاء النبوة هو

---

(١) النووي ، تهذيب الاسماء والكنى ، ج٢ ، ص١١٦ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص٢٥٩ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤١٠ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٨٢ ؛ ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١ ، ص١٦٤ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٦٠٠ ؛ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص٢٧٣ ؛ ابن شبة النميري ، تاريخ المدينة المنورة ، ج١ ، ص٣٨١ .

(٦) ابن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، ج١ ، ص٨٣ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج١ ، ص٣٥٣.

(٧) ابن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، ج١ ، ص٨٣ .

الطموح السياسي والعصبية القبلية ، والعامل الآخير هو الذي دفع أفراد قبيلته حنيفة لمناصرته على الرغم من عرفتهم بكذب مزاعمه[١] ، وتذكر بعض المصادر قول طلحة النميري الذي قدم الى اليمامة للاجتماع بمسيلمة والوقوف على حقيقية دعواه قائلاً : أشهد أنك لكاذب وإن محمداً صادقاً ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر[٢] ، وقد تمكن مسيلمة من ضم حركة سجاح التميمية التي أدعت النبوة أيضاً الى جانبه مع أتباعها من بني تميم التي عنيت في الانفصال عن الدولة المركزية وعدم دفع الجزية بعد أن توجهوا نحو اليمامة حيث يقيم مسيلمة وأتباعه ، وبذلك تشكلت قوة لا يستهان بها لاسيما بعد أن تزوج مسيلمة من سجاح ، وسيرد ذكر تفاصيل محاربتهم في موضوع حروب الردة .

حروب الردة :

بعد أن سير جيش اسامة من قبل الخليفة نحو الشام قدمت بعض الوفود الرافضين دفع الزكاة الى المدينة للتفاوض مع أبي بكر الصديق ﷺ بهذا الشأن والذي رفض طلبهم ، إلا أن هذه الوفود اطلعت على واقع المدينة وما بها من نقص في الحماية فأخبروا قبائلهم بذلك ، الأمر الذي شجع المنافقون لشن هجوماً على المدينة ، وهو ما حصل بالفعل بعد ثلاثة أيام من ذلك الاجتماع ، إلا أنهم خسروا تلك المواجهة ، إذ سبقهم الصديق ﷺ الى تحصين حدود المدينة من خلال توزيع المسلمين على أسوارها ، ولم يكتفِ المسلمون بصد الهجوم بل الحقوا بالمهاجمين وطاردوهم من حيث أتوا واوقعوا بهم القتل وفر من فر ، ويعد هذا أول انتصار اسلامي على هؤلاء المتربصين بالمدينة وأهلها[٣] .

وبعد عودة جيش اسامة الى المدينة وتحقيقه بعض الانتصارات عبأ أبو بكر الصديق ﷺ وجهز جيشاً من أحد عشر لواء تتناسب في عددها وعدتها[٤] ، فخصص ثمانية ألوية

---

(١) هاشم الملاح ، الوسيط في السيرة ، ص٣١٥ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملك ، ج٢ ، ص١٥٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٣٧٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٤٢ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٤٦ .

ألوية للجنوب كون غالبية المرتدين والمتنبئين في الأماكن الجنوبية ، في حين وجه ثلاثة ألوية نحو الشمال ، فضلاً عن وجود قوة عسكرية لحماية المدينة[١] .

وكانت ألوية الجنوب تتألف بالشكل التالي :

١. خالد بن الوليد الى طلحة بن خويلد في بزاخة ، وهي من نواحي نجد لمحاربة المرتدين من طيء وعبس وذبيان .
٢. عكرمة بن أبي جهل الى مسيلمة الكذاب باليمامة .
٣. شرحبيل بن حسنة مدداً لعكرمة فإذا فرغ لحق بقضاعة لمساعدة عمرو بن العاص .
٤. المهاجر بن أبي أمية المخزومي الى اليمن لمحاربة أتباع الأسود العنسي ، وإذا فرغ توجه الى حضرموت لمحاربة المرتدين بزعامة الأشعث بن قيس .
٥. سويد بن مقرن الى تهامة اليمن .
٦. العلاء بن الخضرمي الى الحطيم في البحرين .
٧. حذيفة بن محض الى ذي التاج في عمان .
٨. عرفجة بن هرثمة الى أهل مهرة[٢] .

أما ألوية الشمال فكانت :

١. لواء عمرو بن العاص الى شمال الحجاز .
٢. معن بن حاجز السلمي الى هوازن وبني سليم .
٣. خالد بن سعيد بن العاص الى مشارف الشام[٣] .

وقد سارت الألوية وبحسب الخطة الموضوعة وحمل أصحاب الألوية كتب ذا مضمون واحد الى جميع المرتدين تدعوهم الى الاسلام والرجوع الى ما عاهدوا الله ورسوله عليه وفيها تحذير لمن لا يرجع الى الاسلام وهو حكم الله في الضالين[٤] .

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٣٨ ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ، ص٤٩٤ .

(٢) مهرة : هي قبيلة مهرة بن حيدان وهم من القبائل العربية إلا أن لسان أهلها مستعجم وأرضهم مجاورة لعمان ، ينظر : الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، ج١ ، ص٤٧ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٤٩ ؛ أكرم ضياء العمري ، عصر الخلافة الراشدة ، ج١ ، ص٤٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص١٤٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٤١ .

- خالد بن الوليد[١] في مواجهة طلحة الاسدي :

كان طلحة الاسدي قد استقر في منازل بني أسد ببزاخة[٢] ، وانظم إليه فلول عبس وذبيان وبعض قبائل غطفان وسليم ومن جاورها ، و كان خالد ومعه أربعة الاف مقاتل لمواجهته ، وقد استمال المسلمون الى جانبهم عدي بن حاتم زعيم طي الذي ثبت على اسلامه ، وقد نجح في اقناع قومه بترك طلحة وعدم الالتحاق به ، وبهذا الرأي انسحب من جيش طليحة بني طي وانظموا الى جانب جيش خالد ويقدر عددهم ب (٥٠٠) مقاتل ، فضلاً عن التحاق خمسمائة آخرين من سليم الى جانب المسلمين[٣] .

دارت المعركة عند بزاخة والتحم الجيشان في رحى المعركة انتهت بانتصار المسلمين وانفض الناس من حول طليحة فطاردهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وعاد من بقي عن ردته ، أما طليحة فقد هرب من أرض المعركة بعد أن أيقن نهايته وهزيمة حزبه [٤] ، وبعد فترة من هروبه أسلم طليحة وحسن إسلامه واشترك في معركة القادسية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ الذي حفظ له مكانته ورأيه في الحرب ، وقد استشهد في معركة نهاوند سنة (٢١هـ)[٥] ، استثمر خالد هذا الانتصار في اخضاع القبائل المرتدة في شمال الجزيرة العربية وعادت الى حاضرة الاسلام ممن ارتد من بني عامر وسليم وهوازن[٦] .

وبعد انتهاء خالد من القضاء على حركات الردة في الشمال الشرقي للجزيرة العربية سار الى بطائح بني تيم في شهر شعبان سنة (١١هـ)[٧] ، ولم تحدث معارك أو اشتبكات

---

(١) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن مخزوم القرشي أبو سليمان من أشراف قريش في الجاهلية ، أسلم عام (٧هـ) وقد سر رسول الله ﷺ بإسلامه ، قاد فتوح العراق والشام وحروب الردة ، وكان قائد محترف ومقاتل شجاع ، مارس مهام القائد العام للجيش في أكثر من معركة ، استطاع بذكائه العسكري وشجاعته الفذة أن يحقق النجاح والانتصار في كل مهامه ، قال خالد : قال لي رسل الله ﷺ : أنت سيف الله سله على المشركين ودعا لي بالنصر ، توفي سنة (٢١هـ) ، ينظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١ ، ص١٢٦ ؛ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج١ ، ص٤٤.

(٢) بزاخة : ماء لطي ، وقيل : ماء لبني أسد ، وهي من أرض نجد ، ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٩٠ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٣ ، ص١٠٠ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٥٥-٢٥٧ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج١ ، ص٤٢٧ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٤٢ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص٢٩٩ .

(٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٥٢ .

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٥١ .

اشتبكات عسكرية كبيرة ، ولكن الحملة انتهت بقتل مالك بن نويرة ، وقد أثارة هذه الخطوة حفيظة بعض المسلمين وعرضت خالد بن الوليد الى مجموعة انتقادات ، وهناك اختلافات فقهية لأسباب ودوافع هذه الحادثة يتم بحثها في موضع آخر ان شاء الله .

- القضاء على مسيلمة الكذاب :

إن الوضع في اليمامة كان أشد الجبهات خطورة فبنو حنيفة قوم مسيلمة قد وضعوا أنفسهم بمصاف قريش فلها نبي ورسول ولهم نبي ورسول وفيهم من الجند أضعاف جند قريش ، فكانوا أولي بأس شديد ، فضلاً عن ذلك فقد خسر المسلمون معركتين مع أتباع مسيلمة من قبل ، إذ فشلت قوة عسكرية بقيادة عكرمة بن أبي جهل وأخرى بقيادة شرحبيل بن حسنة في القضاء على مسيلمة وأتباعه[١] ، وصل خالد الى أراضي بني حنيفة في السنة الثانية عشر للهجرة قادماً من المدينة[٢] ، بعد أن تسلم الخطة العسكرية من مركز القيادة للقضاء على مسيلمة .

وكان مسيلمة قد عسكر في عقرباء قرب اليمامة ووصل عدد جنوده ما يقارب الأربعين ألف مقاتل ، في حين عسكر خالد قربهم للتهيء لخوض أشرس معركة سمع بها العرب حتى ذلك الحين وسميت المعركة بعدة اسماء منها(عقرباء ،أو يوم اليمامة ، وكان أشهر الاسماء حديقة الموت[٣] . .

- حديقة الموت :

ابتدأت المعركة كما هو مألوف بمبارزة فردية حتى اشتدت المواجهة بين الطرفين ، وبسبب ضغط المسلمين على جيش مسيلمة الكذاب اضطر الأخير الى التراجع ودخل حديقته مع أعداد كبيرة من أتباعه وأغلق بابها للتخفيف من الضغط ، وحاصر المسلمين الحديقة واقتحموها وجرى بداخلها قتال عنيف ، ولاحت لوحشي مولى المطعم بن عدي قاتل حمزة في معركة احد ، وكان قد أسلم بعدها اذ أنكشف مسيلمة خلالها أمامه فضربه بحربته فأصابه ووقع أرضاً فمات مسيلمة ، وقيل : أكمل عليه شخص أخر فقتله[٤] .

---

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٦ ، ص٣١٥ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٣ ، ص٢٥٣ .

(١) ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٥٧ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٩٣-٢٩٥ .

شكل مقتل مسيلمة عامل نصر للمسلمين ، إذ تزعزعت قوى المرتدين فضلا عن اعلان مجاعة بن مرارة وهو من بني حنيفة ومساعد مسيلمة ، والذي تولى القيادة بعد مقتل مسيلمة الاستسلام وطلب الصلح ، وخسر بنو حنيفة واحد وعشرون ألف قتيل ، في حين خسر المسلمون ألف ومائتي ، وبذلك حشروا بني حنيفة للبيعة والبراء مما كانوا عليه وجددوا اسلامهم[١] .

- القضاء على الردة في البحرين واليمن :

توجه المسلمون بقيادة العلاء الحضرمي بعد القضاء على مسيلمة ، على رأس جيش نحو البحرين كونها مجاورة لليمامة ، وحدثت مواجهة عسكرية شرسة أدت الى انتصار المسلمين وقتل المرتدين في البحرين على أخرهم[٢].

وأرسل أبو بكر ﷺ جيش الى اليمن بقادة عكرمة بن أبي جهل وأخر بقيادة المهاجر بن أبي أمية ، وتعقب الجيشان فلول المرتدين في اليمن حتى عاد هذا البلد الى حضيرة الاسلام ، وكان آخر معاقل للمرتدين في حضرموت بقيادة الأشعث الذي سلم نفسه وأرسل الى أبي بكر ﷺ الذي عفا عنه ، واستقر الوضع في الأمان فكان ذلك آخر حروب الردة[٣] .

- نهاية حروب الردة :

س:ما اسباب انهيار جميع قوى المرتدين امام المسلمين ؟

كانت جملة اسباب ادت في نتيجتها الى سحق جميع حركات الردة ومنها:

١. حزم وصلابة أبي بكر الصديق ﷺ في اتخاذ القرارات بمحاربة المرتدين دون هوادة .
٢. وقوف عرب الحجاز من أهل مكة والمدينة والطائف وبعض الشخصيات في مناطق التمرد لاسيما عدي بن حاتم الطائي الى جانب أبي بكر ﷺ ودعمه وقومه في محاربة المرتدين .

---

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٠٢ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢٩٧ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٠٨-٣١١ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٣٣٥-٣٣٩ .

٣. الى جانب ذلك فإن تفرق حركات الردة وعدم التنسيق فيما بينها وانكماش كل واحدة منها على نفسها ضمن سياسة دفاعية ضعيفة مكن المسلمين من تصفية تلك الحركات واحدة تلو الاخرى .

س:ما نتائج حروب الردة

١. شملت فتنة الردة وما ترتب عليها من حروب كافة أنحاء الجزيرة العربية كرقعة جغرافية تجاوز عدد من شارك بها من الرجال عشرات الالوف سواء كان من الثابتين على الاسلام أو المرتدين ، وبذلك تكون العرب قد دخلت فعلاً بحرب أهلية .

٢. لم تكن أسباب ودوافع من أرتد في الجزيرة العربية واحدة ، فمنهم المنافقين الذين أسلموا رغن أنوفهم في وقت متأخر ، ومنهم من لم يسلم أصلاً ، وبعضهم كان دافعه التعصب القبلي ، كما قال عمير بن طلحة النميري : " كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر " ، وآخرون أشكل عليهم أمر الزكاة وتفسيرهم لنصوص القرآن ، إذ رءوا أنها مغرماً ، فأرادوا التوقف عن دفع الزكاة مع ابقائهم على الصلاة ، فضلاً عن أقوام أرادوا الانفصال عن سلطة المدينة التي أصبحت أمر واقع ، وبالتالي كشفت حركات الردة عن معادن الناس وأظهرت من كان منهم مدعياً للاسلام غير معتقد به ومن هو ثابت على إيمانه .

٣. نتج عن استقرار الأوضاع بعد القضاء على حركات الردة الى إعادة وحدة الجزيرة العربية وأطرافها وربطها بالمركز الاداري للدولة .

٤. لقد كانت معارك حروب الردة عملية تدريب عسكري وعملي على الأرض شارك فيها عشرات الالاف من المقاتلين سواء الثابتين على الاسلام او المرتدين اللذين اعادوا الى الاسلام وانضموا الى صفوف مقاتليه في عمليات الفتح اللاحقة .

٥. الى جانب ذلك برزت من خلال هذه المعارك قيادات عسكرية اكتسبت الخبرة القتالية من حيث القتال والخطط العسكرية منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والقعقاع وغيرهم .

٦. لقد ادت انتصارات المسليمن في القضاء على اهل الردة الى تاسيس قاعدة عربية اسلامية موحدة وهي الجزيرة العربية لتنطلق منها الجيوش الاسلامية في عمليات فتح العراق وفارس والشام وجنوب أفريقيا ، فإن الجيوش التي خرجت

للقضاء على المرتدين استمرت في مسيرتها نحو فتوحات الشرق والشمال والجنوب بعدما التحق بها الالف من المرتدين الذين عادوا الى الاسلام.

- جمع القران الكريم في عهد ابا بكر :

س: كيف ولماذا جمع القرآن الكريم في عهده ﷺ؟

عن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر الصديق بعد مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استمر يوم اليمامة بالناس ، وإني لأخشى أن يستمر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، إلا أن يجمعوه وأني لأرى أن يجمع القرآن ، فقال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيء لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ، فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيها حتى شرح الله لذلك صدري ، فرأيت رأي عمر ، قال زيد وعمر جالس عنده لا يتكلم ، فقال بو بكر لزيد : إنك شاب عاقل ، وقد كنت تكتب الوحي للرسول ﷺ فتتبع القرآن وأجمعه ، وقال زيد : بعد أن شرح الله صدري لذلك تتبعت القرآن أجمعه من الرقاع[١] والأكتاف والعسب[٢] ، وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)[٣] ، فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر ﷺ حتى توفاه الله ، ثم عند عمر ﷺ حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر[٤] .

قد لا يفرق البعض بين جمع القرآن بين لوحين أي كتب في عهد الصديق ﷺ وبين جمع القرآن على قراءة واحدة في عهد عثمان بن عفان ﷺ ، فإن أبو بكر ﷺ جمعه من صدور الناس يكتب فكان أول من جمع القرآن بين لوحين ، فيما وحد عثمان المصاحف على مصحف واحد أو قراءة واحدة ، وإن للأمر تفصيل سيرد ذكره إن شاء الله في عهد عثمن بن عفان ﷺ .

- روايته للحديث :

---

(١) الرقاع : الرقعة التي يكتب عليها ، ينظر : الفيروز آبادي ، القامس المحيط ، ج٣ ، ص١٨٢ .

(٢) العسب : جريد النخل أو كرب السعفة ، ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج٨ ، ص٢٧ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١٢٨ .

(٤) الطبراني ، المعجم الكبير ، ج٥ ، ص١٤٦ ؛ الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص١٥ .

س: على الرغم من ملازمة أبو بكر الصديق ﷺ للنبي ﷺ طيلة حياته ، إلا أن الأحاديث الواردة عن طريقه قليلة جداً؟

ذكر السيوطي أن الصديق ﷺ روى عن رسول الله ﷺ (١٠٤) حديثاً[١] ، وبسبب تقدم وفاة الصديق ﷺ سنة (١٣هـ) ، وفي هذا الوقت لم يكن تدريس الحديث النبوي والاعتناء به وبطرق نقله ، فقد جاءت الأحاديث عن طريقه قليلة مقارنة مع أبو هريرة وعائشة ﷺ فقد ورد عن طريقهما آلاف الأحاديث المسندة ، وبالتأكيد لم يكن الصديق بصفته رئيس الدولة وخليفة المسلمين متفرغاً للحديث وتدريسه ، كما عمل أبو هريرة في مجالس علم في الحديث داخل المسجد النبوي ، فضلاً عن ذلك لم يكن عهد الصديق ﷺ بحاجة الى تدريس الحديث ونشرة كون المسلمين حديثي العهد بوفاة النبي ﷺ وقد سمعوا منه ، وما لأبي بكر ﷺ أن يذكر الأحاديث إلا لضرورة ليس من باب نشرها.

- الفتوحات في عهد الصديق ﷺ :

الفتوحات أو حروب التحرير أين كانت تسميتها لاسيما نحو الفرس والروم قد علقت بسبب حروب الردة ، فعلى ما يبدو كان فتح بلاد الشام والعراق وغيرها من المناطق ضمن توجهات الخليفة الصديق ﷺ ، وخير دليل هو انفاذ جيش اسامة نحو بلاد الروم كما حدد مساره النبي ﷺ قبل وفاته .

ومع استقرار الأوضاع الداخلية وسيطرة الدولة المركزية على زمام الأمور بعد حروب الردة شرعت بتنفيذ هذا التوجه .

والسؤال : هل كانت الدولة المركزية مستعدة للدخول في حروب مع قوى إمبراطوريتين في المنطقة الساسانية الفارسية والرومانية؟

من المعلوم أن الامبراطوريتين أتسمت علاقتهم على مدى قرون بالصراعات والحروب وتوسع نفوذ بعضهم على البعض الآخر من خلال انتصارات هنا وهناك ، وقد استغل المسلمون هذا التناحر وعدم التوافق بين الطرفين ليبدؤا بحرب تحرير وفتح لمناطق الامبراطوريتين ، فلما فرغ أبو بكر الصديق ﷺ من أمر أهل الردة كتب الى أهل

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص٨٩ .

مكة والطائف واليمن وجميع العرب في نجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع[١] .

س: لماذا وجه الخليفة الصديق ﷺ جيوش المسلمين بفتح العراق قبل الشام بعد أن كان القرار نحو الشام؟

على ما يبدو أن أبو بكر ﷺ كان حريصاً على أن تبدأ حروب التحرير في بلاد الشام تنفيذاً لسياسة النبي ﷺ والتي بدأها في حياته غير أن سير المعارك في حروب الردة لاسيما في مناطق البحرين قد أدى الى الاحتكاك بالفرس الساسانيين في سواد جنوب العراق ، فضلاً عن ترغيب المثنى بن الحارث الشيباني للخليفة على فتح هذه المناطق بعد أن عرض عليه مناطق الضعف في صفوف الفرس[٢] .

- فتح العراق :

كتب الخليفة الى خالد بن الوليد الذي كان في اليمامة يأمره بالتوجه الى العراق لمحاربة الفرس على أن يبدأ بـ(بألايلة) ، كما كتب الى عياض بن غنيم يأمره بغزو العراق من أعلاه و يبدأ بـ(المصيخ) حتى يلتقي خالداً ، على أن تكون القيادة لمن يصل الى الحيرة أولاً ، وأمرهم أن لا يكرها أحداً على المضي معهما[٣] ، وبهذه الخطة العسكرية تكون قد حوصرت القوات الفارسية الموجودة في العراق بين فكي كماشة قوى من أمامها وأخرى من خلفها[٤] .

وسار المسلمون على وفق هذه الخطة ، وكتب خالد بن الوليد الى الخليفة لطب الدعم ، ونزل خالد عند النباج وهي من أراضي البصرة ، وكتب الخليفة الى المثنى أن ينضم الى خالد ويكون في إمرته ، وبذلك أصبحت القوة العسكرية بقيادة ابن الوليد ولا تصل الى ثمانية عشر ألف مقاتل[٥] .

- معركة ذات السلاسل :

عندما وصل خالد بن الوليد الى مشارف ايلية في شهر محرم سنة (١٢هـ) كتب الى حاكمها هرمز يدعوه الى إحدى الثلاث (الاسلام ، الجزية ، الحرب) ، وكان رد هرمز

---

(١)البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١١٥ .

(٢) طه حسين ، الشيخان ، ص٨٧-٨٨ ؛ الملاح ، الوسيط ، ص٣٢١ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٤٤-٣٤٧ ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، ج١ ، ص٧٣-٧٦ .

(٤) طقوش ، تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص١٣٢ .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٤٧ .

على هذا الانذار أن حشد قواته واتجه الى الكاظمة وهي محطة لاستراحة القوافل على طريق البصرة لمقاتلة خالد بن الوليد وجيشه ، حيث عسكرت قوات خالد بن الوليد[١] ، وقد دارت على أرض الكاظمة أولى المعارك الكبرى بين العرب المسلمين والفرس عرفت بمعركة ذات السلاسل ، وسميت بهذا الاسم لأن مقاتلة الفرس قد قيدوا أنفسهم بالسلاسل خشية الفرار إذ مالت الحرب لغيرهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الفرس وقتل قائدهم هرمز ، وحصل المسلمون على غنائم كثيرة في هذه المعركة ، فكانت تلك أولى الغنائم التي تصل الخليفة من غنائم الفرس ، وانتقل خالد بن الوليد الى البصرة وسيطرة على الخريبة وهي موضع في البصرة من مناطق نفوذ الفرس[٢] .

- معركة المذار[٣] (١٢هـ) :

وصلت الأخبار الى ملوك الفرس بهذه الهزيمة أمام العرب المسلمين وشعروا بالخطر ، فعسكر الفرس بالمذار استعداداً للتصدي للمسلمين[٤] ، وقد كتب المثنى الى خالد بن الوليد يعلمه بالتطورات ، فتوجه الجيش الاسلامي الى المذار ، وتصادم الجيشان وكان وقع السيوف أقوى من معركة ذات السلاسل ، وانتصر المسلمون في هذه المعركة وقتل من الفرس ما يقارب (٣٠) ألف كان من بينهم قائدان مشهوران هما (انوشجان ، وقباذ) ، وقد هرب من نجا بالسفن وحال الماء دون مطاردة الفارين لافتقار المسلمين الى السفن[٥].

- معركة الولجة[٦] :

أقام خالد بن الوليد في المذار بعد انتصاره على القوات الفارسية لاستقصاء أخبار العدو وجمع المعلومات عن تحرك جيوشهم ، وفي الوقت ذاته جهز الامبراطور الفارسي اردشير جيشين وأمرهما أن يعسكران في الولجة وينتظر جيش المسلمين فيها ، وكانت الخطة الفارسية أن يحصر الجيش الاسلامي بين فكي كماشة ، وقد علم خالد بنية الفرس

---

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٣٤٨ ؛ الملاح ، الوسيط ، ص٣٢٣ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٨ .

(٤) المذار : في ميسان حالياً ، ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج؟؟ ، ص٨٨ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٥١ .

(١) البلاذري ، الفتوح ، ص٢٤٤ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٥١ .

(٢) الولجة : هي من أرض العراق قرب القادسية بينها وبين القادسية فيض من مياه الفرات ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٠٣ .

فقرر ضرب الجيشين الفارسيين كلاً على حدة ، وفعلاً تمكن من ضربهم وإلحاق الهزيمة بهم[١] .

- معركة أليس[٢] (١٢هـ) :

وقعت هذه المعركة في ٢٥ صفر سنة ١٢هـ ، بعد أن خسر الفرس في معركة الولجة تنادوا الى طلب الثأر ، إذ انضم الى الفرس عدد من العرب الموالين لهم ، حتى أن خالد بن الوليد باغت هذا التجمع والتحم الجيشان في رحى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين قتل خلالها (٧٠) ألف مقاتل من الفرس والعرب الموالين لهم[٣] .

- فتح الحيرة :

تعد الحيرة أول عاصمة إقليمية فارسية يفتحها المسلمون ، وهي تقع على طريق المدائن في الجزء أو الضفة الغربية لنهر الفرات ، وكان فتحها بعد أن ضرب المسلمون الحصار عليها ، اذ تحصن أهلها بحصونهم و قد رفضوا ما عرض عليهم خالد بن الوليد من الدخول في الاسلام أو الاستسلام ودفع الجزية ، وأصروا على المقاومة ، وبعد مناورات عسكرية خارج أسوار الحصون تمكن المسلمون من اقتحامها مما اضطر المقاومون الى الاستسلام وجرت مفاوضات وافق بموجبها على دفع الجزية وجرى معاهدة صلح بين الطرفين في ربيع الأول سنة (١٢هـ) ، وقد أتاح فتح الحيرة للمسلمين التوغل في عمق الأراضي العراقية في ما وراء نهر الفرات حتى شاطئ دجلة ، ولم يعد للفرس موطأ قدم بين الحيرة ودجلة ، وبذلك أقام خالد في الحيرة وجعلها مقراً لقيادته ومعقلاً لجيشه[٤].

- فتح الانبار ومعركة ذات العيون :

بعد أن تمكن خالد من فتح الحيرة وسبب تأخر عياض بن غنيم في مهمته وهي الوصول الى الحيرة من جهة الشمال عمل خالد على تنفيذ مهمة عياض والتوجه نحو الانبار ، فتخندق جيش الفرس ومن معهم من العرب ، فما كان من خالد إلا أن يأمر جيشه بضرب عيون المتحصنين وراء الخندق فأصابوا عيون الغالبية منهم لذلك سميت

---

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٥٣-٣٥٤ .

(٤) اليس : قرية من قرى الانبار من ناحية البادية ، ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٤٨.

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٥٣-٣٥٧ .

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

بمعركة ذات العيون ، بعدها اضطر الحاكم الفارسي الى الاستسلام وعقد الصلح ، وكان ذلك في رجب سنة (١٢هـ)[١] .

- معركة الفراض :

حدثت عدة معارك وفتوحات في جهة العراق قبل هذه المعركة منها معركة الخنافس وفتح المصيخ وفتح الثني ، وكانت معركة الفراض آخر أعمال خالد بن الوليد في العراق ، وتقع الفراض على الحدود المشتركة بين البيزنطيين والفرس وعرب الجزيرة ، انتهت هذه المعركة بانتصار المسلمين في ذي القعدة سنة (١٢هـ)[٢] .

- فتوح الشام :

ما أن استقرت الأوضاع في العراق بعد عمليات الفتح هناك انصرفت همة أبا بكر الصديق ﷺ نحو فتوح الشام التي كانت تابعة لمملكة الروم ، فتشكلت الجيوش الاسلامية لفتح مدن الشام على النحو التالي :

١. الجيش الاول : قوامه أربعة الاف مقاتل بقيادة يزيد بن أبي سفيان وهدفه دمشق.
٢. الجيش الثاني : قوامه أربعة الاف مقاتل بقيادة شرحبيل بن حسنة وهدفه بصرى .
٣. الجيش الثالث : بقيادة أبو عبيدة الجراح ومعه ثلاثة الاف مقاتل وجهته حمص.
٤. فيما كان عمرو بن العاص يقود الجيش الرابع ومعه سبعة الاف مقاتل وهدفه فلسطين[٣] .

- معركة مؤاب :

وبالفعل وبحسب الخطة وصل يزيد بن أبي سفيان الى تبوك وشرحبيل الى بصرى وأبو عبيدة الى الجابية ، وهنا شعر هرقل بخطر زحف المسلمين نحوه فحرك جيشاً لملاقاة المسلمين في مؤاب واشتبك الجيشان وخسر الروم المعركة وانسحبوا منها ، فكانت مؤاب أول مدينة بيزنطية تسقط في يد المسلمين[٤] .

س: لماذا استدعي خالد من العراق ليقود الجيوش الاسلامية في جهة الشام؟

---

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٤٧ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ . ص٣٧٣-٣٧٥ .
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٥٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٦ ، ص٣٥٢ .
(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٨٧ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١١٥ .
(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٧ ؛ الأزدي ، تاريخ فتوح الشام ، ص٥٢ .

وبعد عدة مناورات ومعارك حدثت بين الروم والمسلمين وضع هرقل خطة عسكرية تقضي بتجمع القوات الرومية في انطاكيا وفلسطين ، في المقابل كانت خطة المسلمين أن تجتمع جيوش المسلمين في بصرى ، وفي هذه الاثناء أدرك الخليفة أبي بكر ﷺ حرج موقف المسلمين على الجبهة الشامية وإنهم بحاجة لقيادة فذة تخرجهم من هذا الوضع الحرج[١] ، وبالتالي ضعف الموقف في الشام واستقرار جبهة العراق جعل الخليفة يستدعي خالد ليقود الجيوش في الشام ، وخرج خالد بن الوليد من الحيرة بناءً على أوامر الخليفة في ٨ صفر سنة ١٣هـ ومعه تسعة الاف مقاتل[٢] ، وقد حدث أثناء سير خالد نحو بلاد الشام أن فتح العديد من المدن والقرى حتى وصل الجانب الشرقي لدمشق وتصالح مع أهلها[٣] .

- فتح بصرى :

وضمن الاشتباكات الاسلامية البيزنطية تصادم جيش خالد بن الوليد مع الروم البيزنطيين قرب بصرى بغية فك الحصار عن عمرو بن العاص هناك ، إذ حاصره الروم قبل وصول خالد إليه ، وتمكن المسلمون من فرض الحصار على بصرى وأجبروا أهلها على طلب الصلح ، فكانت أول مدينة تفتح صلحاً في بلاد الشام وأول جزية وقعت في هذا البلد في عهد الصديق ﷺ[٤] .

- معركة أجنادين (١٣هـ) :

تجمع جيش المسلمين عند أجنادين حيث تجمع جيش الروم ، وأجنادين بلدة من أعمال فلسطين[٥] ، وجرت معركة عنيفة يوم السبت المصادف ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣هـ ، وكان جيش المسلمين (٢٧) ألف مقاتل ، في حين بلغ جيش الروم قرابة (١٠٠) ألف مقاتل ، ، أبلى المسلمين فيها بقيادة خالد بن الوليد بلاءً حسناً ، وكان نصراً عظيماً للمسلمين ، وبهذا النصر زادت قوة المسلمين وتعززت ثقتهم بأنفسهم لاستكمال تصفية الوجود البيزنطي في بلاد الشام[٦] ، وبعد هذا النصر توجه المسلمين الى دمشق

---

(٣) طقوش ، تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص١٥٩ .

(٤) الواقدي ، فتوح الشام ، ج١ ، ص٢٥ .

(٥) البلاذري، فتوح البلدان ، ص٩٧ .

(١) المصدر نفسه ، ص١٢٠ ؛ الأزدي ، تاريخ فتوح الشام ، ص٨١ .

(٢) الحميري ، الروض المعطار ، ج١ ، ص١٣ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٣٥ .

وحاصروها من جميع أبوابها ، وفي هذه الأثناء وصل خبر وفاة الخليفة بو بكر الصديق ﷺ[١] .

- نهاية حياة أبي بكر الصديق ﷺ وترشيحه لعمر بن الخطاب ﷺ من بعده :

ذكرت العديد من المصادر التاريخية إن أبا بكر لما ثقل به مرضه الأخير وشعر بدنو أجله راودته المخاوف من فتنة قد تحدث من بعده بسبب أمر الخلافة كما حدث في سقيفة بني ساعدة ، وإن الفتنة ستكون أعم وأوسع فإن الأمر لم ينحصر هذه المرة بين المهاجرين والأنصار فحسب كون الدولة قد امتدت بعد حروب الردة والفتوحات غرباً وشرقاً ، وأخذ أبا بكر يقلب الأمر وهو على فراش الموت يختار رجلاً من الصحابة ، فاستشار الصحابة في عمر بن الخطاب وكلهم أشادوا بهذا الاختيار وأثنوا عليه ، وعندئذ قرر الخليفة ترشيح عمر بن الخطاب ﷺ ليكون خليفة للمسلمين من بعده ، فعرض الأمر على الأمة وخاطب المسلمون في المسجد بهذا الأمر فلم يتردد أحداً بقبوله[٢] .

فدعا أبا بكر عثمان بن عفان وقال : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له واطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ،والخير اردت ولا اعلم الغيب " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " ، والسلام عليكم و رحمة الله وبركاته ، ثم أمر بالكتاب فختمه[٣] .

- وفاة الصديق ﷺ :

س: هل مات الصديق ﷺ مريضاً أم مقتلاً؟

جاءت الروايات التاريخية تجمع على وفاة أبي بكر الصديق ﷺ يوم الاثنين لثمان ليالٍ بقين من جمادى الآخر وهو ابن ثلاث وستين سنة[٤] ، وعن سبب وفاته قيل : أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوماً بارداً فحم خمسة عشر يوماً

---

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٤١٩ ؛ ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، ص٦٥ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٥٨ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج١ ، ص٣٥٨ .

(١) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج١ ، ص٣٢ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٥٣ ؛ ابن حبان ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص٤٥٢ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج٣ ، ص٢٠٢ ؛ المزي ، تهذيب الكمال ، ج١٩ ، ص٢٨٤ ؛ ابن حجر ، الاصابة ، ج٤ ، ص١٧٤ .

لا يخرج الى الصلاة[١] ، وقيل : سمه اليهود في أرز ، وقيل : في صريرة ، وهي الحسوة فأكل هو والحارث بن كلدة ، فكف الحارث وقال لأبي بكر : أكلنا طعاماً مسموماً سم سنة فماتا بعد سنة وفي نفس اليوم[٢] .

ودخلوا على أبي بكر ﷺ في مرضه فقالوا : يا خليفة رسول الله ألا ندعوا لك طبيباً ينظر إليك قال : قد نظر ، فقالوا : ما قال لك؟ ، قال : إني فعال لما أريد ، وفي مسند احمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : إن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أي يوم هذا؟ ، قالوا : يوم الاثنين ، قال : فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي لغد فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها من رسول الله ﷺ[٣] .

وقد أوصى أن تغسله زوجته اسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن وأن يكفن بثوبه ويدفن عند قبر رسول الله ﷺ ، وقد دفن ليلاً وصلى عليه عمر بن الخطاب ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ ، وجعلوا رأسه عند كتف النبي ﷺ والصقو لحده بلحد النبي ﷺ ، وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة شهر وثلاثة أيام[٤] .

---

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص٢٩٩ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٨٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٣٤٧ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٥٩ .

(٥) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج١ ، ص٣١ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٤٥١ .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٢١٦ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص٣٩٥ .

ثانياً. الخليفة عمر بن الخطاب :

- اسمه ومولده :

أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي( ) ، يجتمع نسبه مع رسول اه بكعب بن لؤي بن غالب( ) ، أمه ختمة بنت هاشم بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم( ) .

ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، وكان سفيراً لقريش في المنازعات ، وفي صغره كان يرعى الغنم ثم احترف التجارة( ) .

- حياته قبل الاسلام (الجاهلية) :

س: هل كان عمر بن الخطاب يشبه أبا بكر الصديق في اعتقاده قبل إسلامه ، أم من عبدة الأوثان؟

نشأ في مكة وترعرع في بيئة وثنية في ظل والده الخطاب ، وكان يكلفه بالأعمال الشاقة ، تعلم الفروسية حتى أضحى من أبطال قريش في الجاهلية ، مهاب الشخصية يدافع عن عبادة الأصنام بقوة ، اجاد الكتابة والقراءة ، وتذوق الشعر ورواه( ) ، وكان عمر بن الخطاب شديد الأذى والخصومة للمسلمين محارباً لهم( ) .

- إسلامه :

س: هل كان اسلام عمر بن الخطاب بدعاء أم دعوة النبي ؟

كان النبي يعرف تماماً الخصال في شخص عمر بن الخطاب ويطمع في إسلامه ، في حين أن بعض المسلمين يرون استحالة إسلامه ، لكن النبي دعا : اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام( ) .

وبسبب نظرته الى أن الاسلام قد فرق الجماعة وشتت قريش ، قرر أن يخمد الفتنة بطريقته الخاصة من خلال قتل النبي ، فخرج عمر بن الخطاب يوماً متوشحاً سيفه فلقيه نعيم بن عبد الله الخام ، وكان قد اسلم سراً فقال لعمر بن الخطاب : الى أين؟ ، فأجابه عمر : إني أريد محمداً ذلك الذي سفه ديننا وسب ألهتنا فأقتله بهذا السيف ، فقال له نعيم : لقد غرتك نفسك بنفسك يا عمر ، أو تر بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمداً؟ ، ارجع وأصلح أهلك ، فقال له عمر وأي أهلي؟ ، فقال له نعيم : أختك فاطمة وزوجها سعيد فقد أسلما تبعا محمداً( ) .

ورجع عمر بن الخطاب الى أخته ، وكان معها خباب بن الأرت يعلمها القرآن من صحيفة فيها سورة طه ، فلما سمعوا صوت عكر بن الخطاب أخبأ خباب في مخدع لهم وخبأت فاطمة الصحيفة ، فدخل عمر فقال لهم : ما هذه الهينمة؟ ، قال : ليس هناك شيئاً ، قال : أُخبرت أنكما تبعتما محمداً على دينه ، وفتك بزوج أخته سعيد وجاء فاطمة تدافع عن زوجها فضربها عمر وشج وجهها حتى سال الدم فيه ، فقال له أخته : فالله فد أسلمنا فافعل ما بدا لك ، فرق قلب عمر عندما رأى الدم يسيل من وجه أخته ، وقال لها : اعطني الصحيفة أنظر ما بها ، فقالت له أخته : إننا نخشاك عليها ، فقال لها : لا تخافي ، فطمعت أخته في إسلامه وقالت له : إنك نجس وعليك أن تغتسل قبل أن تقرأها ، ففعل واعطته الصحيفة ، وكان فيها سورة طه فقرأ فيها ، وكان قارئاً ثم قال : ما أحسن هذا الكلام ، وعندما سمع خباب ذلك خرج وقال : الله الله يا عمر ، والله لقد سمعت رسول الله يدعو ويقول : اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام ، وآمل أن تكون دعوته قد أصابتك ، فقال عمر لخباب : دلني على مكان رسول الله لأسلم ، فدل فذهب الى دار بني الأرقم وأعلن إسلامه( ).

وهكذا أسلم عمر بن الخطاب في السنة السادسة من البعثة ، وهو يومئذ ابن تسع وعشرين ، وعارض اسلوب استخفاء المسلمين وأبى إلا أن يخرجوا الى الكعبة ليؤدوا الصلاة فيها جهاراً أمام قريش ، ووافق النبي ،

على الفكرة ، وبالفعل خرج المسلمين في اليوم التالي يمشون في طرقات مكة نحو الكعبة في صفين على أحدهما حمزة بن عبد المطلب والآخر عمر بن الخطاب فسماه النبي من ذلك الوقت بالفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل( ) .

وقال عبد الله بن مسعود : إن إسلام عمر كان فتحاً ، ولقد كنا لا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه( ) .

وقد هاجر عمر بن الخطاب الى المدينة علانية ، إذ توشح سلاحه ومضى الى الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم : شاهت الوجه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (الأنوف) ، من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده أو يمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي فما تبعه أحداً إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لجه( ) .

وهكذا ظل عمر بن الخطاب لا يخشى في الله لومة لائم ، وكان سنداً ومعيناً لمن أراد الهجرة من مسلمي مكة حتى خرج معه هذا الوفد ، وقد هاجر قبل هجرة النبي الى المدينة ، إن صرامة عمر بن الخطاب وصراحته وشدته مخالفته لرأي النبي كما في صلح الحديبية لم تنقص يوماً من مكانته أو احترامه ، وذلك بأنه كان مخلصاً صادقاً في كل ما يراه ويشير به ، وكان موضع تقدير واحترام من كل المسلمين وسنداً لأبي بكر الصديق في خلافته( ) .

وقد شهد مع رسول الله المشاهد كلها ، واستمر أميناً وفياً مدافعاً عن الحق رافعاً رايته حتى انتقل النبي الى الرفيق الأعلى .

- توليه الخلافة :

س: هل كان اختيار عمر للخلافة تحت مبدأ الشورى أم لاجتهادات شخصية؟

ذكرنا آنفاً إن أبا بكر الصديق حين شعر بدنو أجله اختار للمسلمين من بعده خليفة وهو عمر بن الخطاب ، وجاء ترشيحه له لما رآه من مواصفات يحملها عمر بن الخطاب ، فضلاً عن ذلك فقد استشار أهل الحل والعقد من الصحابة ، ومن ثم قدمه للخلافة بعد أن وافق الجميع ، فكتب ذلك في كتاب وأمام الناس ، إلا أن البعض من كتاب التاريخ من مسلمين وغيرهم قد أثاروا عدة تساؤلات إن لم نقل اعتراضات على هذا الترشيح كون تجاوز مبدأ الشورى المتفق عليه في تنصيب الخليفة ، فنقول الآتي :

١. جاءت هذه الطريقة التي عرفت فيما بعد الاستخلاف أو العهد وهو شكل من أشكال البيعة الخاصة أو البيعة الصغرى ، والتي تعد ممهدة للبيعة الكبرى وهي الأساس .

٢. هناك من يرى هذه الطريقة منافية لمبدأ الشورى ، غير إننا إذا تبصرنا في هذه المسألة نجدها قائمة على مشورة أهل الحل والعقد ، فكان ترشيح عمر بن الخطاب بعد أن أُخذ مشورة الصحابة فكان الاجماع على الموافقة والتزكية له ، فلو أن أفراد الأمة لم يتقبلوا هذا المرشح فلم يترتب عليه أي أثر شرعي ، فمن غير بيعة عامة لا تصح الخلافة .

٣. إن عمر بن الخطاب كان ملازماً للخليفة أبا بكر الصديق على مدى خلافته ، وبذلك اتيحت له فرصة الاطلاع على دقائق الأمور أثناء تسيير دفة الحكم ، وهو بذلك اكتسب مزيداً من الخبرة في الشأن العام والسياسة والادارة أهلته ليكون خليفة للمسلمين .

٤. هناك من يهمز إن اختيار عمر بن الخطاب من قبل أبا بكر الصديق جاء لمساندته في سقيفة بني ساعدة ، وهو بعيد الاحتمال فلو كان لأبي بكر نزعة دنيوية في ذلك لكان رشح من أبناءه ، فضلاً عن ذلك لو

لم يكن اختيار عمر بن الخطاب موفق لوجدنا من اعترض من الصحابة على ترشيحه ، فكان اجتماع الصحابة على تولية الخلافة في حين لم نجد ذلك الاجماع من قبل الصحابة في تولي أبا بكر للخلافة .

وكانت البيعة العامة لعمر بن الخطاب بالخلافة في المسجد النبوي في اليوم نفسه الذي توفي فيه الخليفة أبا بكر الصديق يوم ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ .

- تلقبه بأمير المؤمنين :

س: كيف استحدث مصطلح أمير المؤمنين ومن أول من تلقب به؟

كان أبا بكر الصديق يكتب من خليفة رسول الله ، وكان عمر بن الخطاب يكتب من خليفة خليفة رسول الله ، حتى كتب عمر الى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين ليسألهما عن العراق وأهله ، فبعث إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدوا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لما أمير المؤمنين لنا ، فقال عمرو : أنتما والله أصبتما ايمه ، فدخل عمرو فقال : السلام على أمير المؤمنين ، فقال : ما بدا لك بهذا الاسم؟ ، فأخبره ، وقال : أنت أمير ونحن المؤمنون ، فجرى الكتاب بذلك من حينها ، وقيل : إن هذا التوصيف أقترحه المغيرة بن شعبة قائلاً : أنت الأمير ونحن المؤمنون( ) .

- زهده :

قال عمر : لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة الشتاء وحلة الصيف ، وما أُحج بع واعتمر ، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم( ) ، قال أنس : تقرقر بطن عمر من أكل الزيت عام الرمادة ، وكان قد حَرمَ على نفسه السمن ، فنقر بطنه بأصبعه وقال : ليس عدنا غيره حتى يحي الناس ، وقال أنس : رأيت بين كتفي عمر أريع رقاع في قميصه( ) .

- إجلاء أهل نجران :

س: كيف تعامل المسلمون مع أهل الكتاب في نجران ولماذا إجلوا منها؟

من أول الأعمال التي قام بها الخليفة عمر بن الخطاب حين تسلم منصبه كانت انتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس ، وبعث يعلي بن أمية الى اليمن لإجلاء أهل نجران وكانوا أهل كتاب ، بالرجع الى حياة النبي فإن وفداً من أهالي نجران قدم الى الرسل ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح ، وإن يقبل منهم الجزاء فصالحهم عبى شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين ، وكتب لهم بذلك كتاباً جعل فيه ذمة الله وعهده وأن لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يبعثروا وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعِيرهم ولا يطأ أرضهم جيش ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله ، حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به( ) .

ولما توفي رسول الله استخلف أبا بكر الصديق وأقرهم على حالهم وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله ، مع أنه كان يتخوفهم ويود إجلائهم لما روي أن الرسول قال : " لا يبقين في جزيرة العرب دينان "( ) .

ولما حضرت أبي بكر الصديق الوفاة أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم لنقضهم بإصابتهم الربا ، وكان النبي يرى أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثة العهد بالإسلام ، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام لاسيما أنهم حديث عهد بالاسلام كما ذكرنا ، ومن جهة أخرى فإن النجرانيين كانوا يتجارون بالربا ، الأمر الذي دفع ببعض المسلمين في اليمن بالتعامل بالربا وهو محرم في شريعة الاسلام ، علماً أنهم عاهدوا رسول الله ألا يتعاملوا به .

ولما استخلف عمر بن الخطاب بعث يعلي بن أمية لإجلائهم وأمره أن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم يخيرهم عن أرهم في أي أرض شاءوا من أراضي المسلمين خارج الجزيرة العربية فيعطون أرضاً كأرضهم إقراراً لهم

بالحق ووفاءً بذمتهم في أمر الله ، وعلى هذا الوجه أجلى عمر بن الخطاب النجرانيين النصارى واليهود ، فتفرقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم الكوفة( ) .

س: ما قصة سارية الجبل ؟

تعد هذه الواقعة من كرامات الخليفة عمر بن الخطاب ، وخلاصة القصة : أن الخليفة عمر قد أمرة سارية بن زنيم( ) جيشاً وسيره الى فارس سنة (٢٣هـ) ، وفي إحدى خطب الجمعة والخليفة عمر واقف على المنبر وقع في خاطره أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم في بطن وادٍ وقد هموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل ، فقال عمر وهو يخطب بصوتٍ عالٍ : " يا سارية الجبل الجبل " ثلاثاً ، فألقاه الله لهذا النداء في سمع سارية ، فإنحاز بالناس الى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ففتح الله عليهم ، وبعد قدوم سارية الى عمر بن الخطاب قال : يا أمير المؤمنين هُزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي يا سارية الجبل ثلاثاً فأسندنا ظهورنا الى الجبل فهزمهم الله ، وقال عمر : وقع خلدي إن المشركين هزموا إخواننا وإنهم يمرون بجبل فإن عدوا إليه قاتلوا من وجه واحد وإن جاوزوا هلكوا فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه( ) .

س: كيف ومتى استحدث المسلمون التاريخ الهجري؟

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به إلا من خلال الحوادث الشهيرة عندهم مثل : عام الفيل ، حرب الفجار وغيرها ، وقيل أن أهل اليمن عرفوا نوعاً من التقويم في كتابة تاريخ الحوادث قبل غيرها من العرب ، وإن أول من أرخ هو يعلي بن أمية وهو باليمن ، وكانت هناك بعض المحاولات للمسلمين في تاريخ بعض الأحداث التاريخية بعد هجرة الرسول الى الدينة اعتباراً من تاريخ هجرته ( ) .

غير إن تلك المحاولات لم تؤدي الى وضع تقويم ثابت يعتمد عليه الناس في تدوين الحوادث والأخبار ، ومع توسع الدولة الاسلامية في عهد الخليفة عمر دعت الحاجة الى تنظيم تاريخ الكتب والمراسلات ، وذكرت بعض المصادر التاريخية إن أبا موسى الأشعري ولي البصرة كتب الى الخليفة : " إنه تأتينا منك كتب ليس لها تاريخ " ( ) .

فجمع الخليفة عمر للمشورة ، فقال بعضهم : نؤرخ لمبعث رسول الله ، وقال بعضهم : لمهاجرة الرسول ، فقال عمر : بل نؤرخ لمهاجرة الرسول فإن مهاجرته فرق بين الحق والباطل( ) .

ولاحظ أن الخليفة عمر بن الخطاب حين أمر باتخاذ الهجرة أساساً للتقويم لم يجعل بدايته من شهر ربيع الأول الذي حصلت فيه الهجرة ، بل أتخذ بداية شهر محرم من تلك السنة كبداية للتقويم الهجري ، وذلك لأن المحرم هو منصرغ الناس من حجهم وهو شهر حرام ، وبذلك يكون المسلمون قد أسسوا لتقويم جديد لم تعهده العرب من قبل لتدوين الأخبار والحوادث التاريخية ، وكان ذلك سنة ١٦هـ( ) ، وقيل : ١٧هـ( ) .

– حروب التحرير والفتوحات الاسلامية :

لقد خاضت الجيوش الاسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب العديد من الحروب والمعارك على الجبهات المختلفة منها الجبهة العراقية ، وجبهة فتح بلاد فارس ، ومهارك فتوح الشام ومصر حتى بلاد أفريقيا ، وسنذكر كل جبهة بشكل مفصل عن الأخرى مع مراعاة الأختصار والتركيز على مشاهير المعارك وأهم الأثار المترتبة عليها وعلى الشكل الآتي :

أولاً. تحرير العراق (١٣هـ) :

دعا الخليفة عمر بن الخطاب بعد مبايعته الناس الى الانضمام لجيش المسلمين لمقاتلة الفرس في العراق لتحرير كامل الأراضي العراقية من التواجد الفارسي ، إذ قدم المثنى بن حارث الشيباني للخليفة شرحاً مفصلاً بمواضع الضعف الدى الفرس ، إلا أن أغلب العرب ترددت في قبول دعوة الخليفة لمحاربة الفرس لمعرفتهم بقوة

وسطوة هؤلاء القوم ، وبسبب عدم سهولة الموقف قرر الخليفة عمر أن يشرك القبائل التي عادت الى اسلامها بعد الردة ، إذ لم تشترك هذه القبائل في حروب التحرير على جبهة العراق والشام في عهد أبا بكر الصديق ( ) .

وقد استجابت هذه القبائل لدعوة الخليفة عمر ، واختار الخليفة أبا عبيد بن مسعود الثقفي قائداً للجيش ، والوقت نفسه أصبح رستم حاكم خراسان القائد العام والحاكم الفعلي للجيوش الفارسية ، عبأ أبو عبيد الثقفي جيش المسلمين البالغ عدده عشرة آلاف مقاتل وزحف نحو النمارق وهو موضع قرب الكوفة ، ودارت بين الجيشين الاسلامي والفارسي معركة النمارق في ١٣ شعبان سنة ١٣هـ ، هُزم الفرس فيها ، وتلتها معركة قرب السقاطية خسرها الفرس أيضاً ، الأمر الذي أدى الى رفع الروح المعنوية للمسلمين وبعد مناوشات عدة تمكن المسلمون من بسط سيطرتهم على معظم مناطق سواد العراق( ) .

ثانياً. معركة الجسر (١٣هـ) :

س: ما أهم أسباب خسارة المسلمين في هذه المعركة؟

جهز الفرس جيشاً قوامه (١٢) ألف مقاتل وأرسلوه الى الحيرة وبرفقتهم عدد من الفيلة حتى استقر الجيش في منطقة (قسر الناطق) ، ولم يفصل تجمع جيش المسلمين عنهم إلا نهر الفرات ، وقد خير قائد الجيش الفارسي (بهمن) أبا عبيد أما أن يعبر اليه أو يدعه يعبر الى الجانب الآخر ، فقرر القائد أبا عبيد الثقفي العبور الى الجانب الفارسي( ) .

فكان هذا أول الأخطاء فقد حسر نفسه وجيشه في مساحة ضيقة لا مجال للكر والفر فيها ، وقد عبر المسلمون نهر الفرات فوق جسر أقيم لهذه الغاية ، وبعد عبوره الجسر قرر أبا عبيد الثقفي قطع الجسر حتى يحول دون تفكير جنوده بالتراع ، وهو السبب الثاني لخسارة المعركة ، ودارت بين الطرفين معركة ضارية أدت فيها الفيلة دوراً كبيراً ، إذ كانت تجفل خيل المسلمين منها ، فكان دخول الفيلة أرض المعركة سبباً ثالثاً لخسارة المسلمين ، فكانت معركة غير متكافئة لا بالعدد ولا بالعدة خسر المسلمون فيها آلاف الشهداء بما فيهم قائدهم .

عندئذ أدرك المثنى حرج الموقف فحمل على عقد الجسر وانسحب بعد أن أصيب بجروح مع الجيش المتبقي ، وقد جرت المعركة في ٢٣ شعبان سنة ١٣هـ( ) ، وقد سميت هذه المعركة أيضاً بالمروحة ، فخسر المسلمون هذه المعركة وهي الأولى التي يخسرها المسلمون أمام الفرس ، وقد حزن الخليفة عمر لهذه المعركة حزناً شديداً( ) ، فما كان من الخليفة إلا أن يدفع بحشود ضخمة الى أرض العراق نداً للمثنى الذي دعا القبائل العربية ومنهم النصارى الى الوقوف بجانبه( ) .

ثالثاً. معركة البويب (١٣هـ) :

س: ما أوجه التشابه والاختلاف بين معركة الجسر والبويب؟

بعد أن حشد المسلمون الجيوش في العراق أخذ الفرس يستعدون لهذه المواجهة ، فجهزوا جيشاً قوامه اثنا عشر ألف مقاتل بقيادة مهران بن باذان الهمذاني( ) ، بالمقابل تحرك جيش المثنى بن حارث الشيباني مع جيشه نحو البويب وتحديداً على الشاطئ الشرقي لنهر الفرات ، وكان قوام جيش المسلمين نحو ثمانية آلاف مقاتل ، وسار مهران الى الجهة المقابلة من الفرات لا يفصل بين الجيشين إلا النهر ، فأرسل مهران الى المثنى : إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم( ) ، ما كان للمثنى أن يعيد خطأ أبي عبيد الثقفي عندما عبر إليهم فقال : اعبروا ، وبالفعل عبروا الفرس الى البويب واشتبك الطرفين في معركة طاحنة انتصر المسلمون فيها وقتل قائد الفرس (مهران) ، وطارد المسلمون من هرب من جيش الفرس( ) .

لقد كانت معركة البويب في ظروف مشابهة لظروف معركة الجسر ، وقد استفاد المسلمون من أخطاء معركة الجسر ، وثبتت نتائج المعركة أن المثنى بن حارث الشيباني كان يتمتع بروح قتالية وفنون عسكرية مكنته من رسم خطة المعركة التي حصد نتائجها لصالحه ، وكانت هذه المعركة في شهر رمضان سنة (١٣هـ) .

رابعاً. معركة القادسية :

في أعقاب هزيمة الفرس في معركة البويب ، عمدوا الى ترتيب أوضاعهم الداخلية لمواجهة خطر المسلمين المحيط بهم ، إذ نصبوا يزدجرد الثالث وهو ابن شهريار بن كسرى ، والذي عين رستم قائداً للجيش وكلفه بأمر المسلمين في الجنوب ، وأخذوا على تهييج السكان من المسلمين وتشجيعهم لعدم دفع الجزية ، لقد اثارت هذه الاجراءات السياسية والعسكرية الفارسية المثنى فكتب الى الخليفة يطلب منه النصح والرأي( ) .

وبعد توجيه الخليفة عمر بن الخطاب نزل المثنى بذي قار ووزع قواته هناك ، وأمر الخليفة جميع القبائل المقاتلة التي كانت مع خالد بن الوليد في السواد بالتوجه الى العراق والالتحاق بجيوش المسلمين هناك( ) .

وقد عين الخليفة عمر سعد بن أبي وقاص قائداً جديداً على جبهة العراق بدلاً من المثنى بن حارث الشيباني إذ كان مريضاً وتوفي قبل بدء معركة القادسية( ) ، وقد تمركز سعد بن أبي وقاص في القادسية وأقام فيها شهراً ، وفيها قرر يزدجرد إرسال الجيوش بقيادة رستم لملاقاة المسلمين في القادسية ، وبلغت قواته ما يقارب المائة وعشرين ألف مقاتل معززين بالفيلة والآلات الحربية المتطورة ، وكما هو معروف إن المسلمين ينذرون من يقاتلهم ويعرضون عليم (الاسلام أو الجزية أو الحرب) ، وقد انتهت المفاوضات بالفشل ، بل الأمر أدى استشاضة رستم بسبب مطالب المسلمين وطريقة تفاوضهم( ) .

وقد التحم الجيشان بعد أن عبر رستم بجيشه النهر الفاصل بينهما ، ودارت المعركة التي استمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم بانتصار المسلمين وقتل رستم في المعركة ، وجرت المعركة على أغلب المصادر سنة (١٥هـ)( ) ، وبالتالي تعد هذه المعركة بداية نهاية التسلط الفارسي في الاراضي العربية ، فضلاً عن بداية الفتح الاسلامي لبلاد فارس إذ هرب يزدجرد ملك فارس من المدائن عاصمة الساسانيين الى حلوان( ) .

خامساً. فتح جلولاء وحلوان :

بعد أن تمركز الفرس في حلوان اتخذوا من مدينة جلولاء قاعدة لهم في محاولة لوقوف سير المسلمين تجاه حلوان ، وقد خرج جيش المسلمين وحاصر جلولاء لمدة ثمانين يوماً تخلله بعض المناوشات بين الجانبين حتى اقتحم المدينة وكبدوا الفرس آلاف القتلى فجللوا المجال بالجثث ، لذلك سميت جلولاء وتم الفتح فيها من الغنائم أكثر مما أصابوا في القادسية( ) .

واستمر الزحف الاسلامي نحو وجرت معركة قاسية هُزم فيها الفرس ودخل القعقاع حلوان صلحاً ، فكان فتح حلوان خاتمة فتوح العراق من جهة الشرق ، وهكذا بسط الاسلام في وسط وجنوب العراق بعد كسر نفوذ الفرس فيها .

سادساً. فتح تكريت والموصل (١٦هـ) :

س: لماذا كلفت القوات الخاصة بمحاربة الفرس من تحرير تكريت والموصل عن السيطرة البيزنطية ولم تكلف القوات على جهة بلاد الشام بذلك؟

بعد أن سيطر المسلمين على وسط العراق وجنوبه تطلعوا الى فتح شماله ، وفي الوقت ذاته حشد جموع البيزنطيين من أهالي المصل وكانت خاضعة لسيطرتهم في ذلك الوقت ، فهي امتداد لبلاد الشام ، وقد عسكرت هذه القوات في تكريت تحسباً لأي عمل عسكري اسلامي نحو تكريت والموصل ، وبالفعل وصلت قوة عسكرية اسلامية قوامها خمسة آلاف مقاتل خرجوا من المدائن بقيادة عبد الله بن المقسم وضبوا الحصار على تكريت ادة أربعين

يوماً حتى جرى قتال عند صناديق تكريت ، وشارك فيها القبائل العربية الى جانب المسلمين وأصبحت تكريت بيد المسلمين في جمادى الاولى سنة ١٦هـ( ) .

وبعد فتح تكريت وعملاً بتعليمات الخليفة عمر بن الخطاب أرسل عبد اله المقسم ربيعاً العنزي الى نينوى والموصل على رأس جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل ، فضلاً عن العرب الذين أسلموا حديثاً ، وقد فاجيء المسلمون بسرعة وصولهم الى الموصل وتم الصلح في أواخر سنة ١٦هـ ، اتجه بعدها الجيش لفتح هيت( ) . وبهذا فتحت جميع الأراضي العراقية وتحررت من السيطرة الفارسية والبيزنطية .

لقد كانت مهمة فتح تكريت والموصل من قبل قوات تحرير العراق من التسلط الفارسي في اطار عملية استثنائية قامت بها رداً على تحرك الروم ، ولم تكلف هذه الوات بالتوسع في تحرير المناطق المحيطة بالموصل والجزيرة ، لأن ذلك ضمن واجبات القوات التي تحارب الروم في جهة الشام ، إذ كانت هذه الخطوة ضمن جبهة العراق وليس الشام وإن كان العدو ليس الفرس( ) .

- فتوح فارس :

س: لماذا قرر الخليفة عمر بن الخطاب الدخول الى الاراضي الفارسية وفتحها بعد أن كان قراره : (وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار)؟

لم يكن قرار الخليفة عمر بعد تحرير العراق الدخول الى الأراضي الفارسية لفتحها ، وكان يرغب بعدم انسياح المسلمين داخل بلاد الفرس ، وكان يقول : " وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم "( ) ، إلا أن الفرس لم يركنوا الى الهدوء فكانوا يجهزون الجيوش استعداداً لمواجهة الحرب ويثيرون القلاقل والفتن في البلاد المفتوحة ، حتى وصل المسلمون الى قناعة أن الفتنة لم تخمد ما لم يخرج يزدجرد من حدود بلاد فارس ، فأنهم لم تنقطع آمالهم في استرداد ما خسروه من أراضي العراق ، الأمر الذي أدى الى تغير سياسة الخليفة عمر بن الخطاب تجاه الفرس( ) .

فكان يزدجرد الذي هرب واستقر في مرو قد بغض بقوة عسكرية نحو الاهواز بقيادة الهرمزان بالمقابل خرجت قوة عسكرية اسلامية بقيادة النعمان بن مقرن ، وبعد تصادم الجيشان انسحب من المعركة الهرمزان بعد أن تكب خسائر كبيرة على يد المسلمين فتم فتح الاهواز ، من ثم ملاحقة الهرمزان الى تستر والذي أُسر فيها وفتحت المدينة بعد ذلك( ) .

ومن ثم فتحت نهاوند وكانت منطقة جبلية ، إذ دفع المسلمون القوات الفارسية من مقرها ليسهل عملية الانتصار عليهم ، وكانت معركة فتح نهاوند من شرس المعارك الدامية حتى كسيت أرض المعركة بالدماء ، وكان النصر حليف المسلمين فيها ، وتلاها فتح همذان أواخر سنة (٢١هـ) ، ومن ثم اصفهان في السنة نفسها ، وتوالت فتوحات بلاد فارس تباعاً ، ففتحت الري وجرجان وطبرستان سنة (٢٢هـ) ، حتى تمكن المسلمون سنة (٢٣هـ) من الوصول الى قلب الامبراطورية الفارسية الساسانية التي حكمت الشعوب المجاورة ، وبهزيمة يزدجرد الى خارج خراسان ومقتله أدى الى فتح جميع بلاد فارس والقضاء على الامبراطورية الفارسية( ) .

- فتوح الشام :

س: ما سبب عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيوش في جبهة الشام من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ؟

من الأعمال التي أقدم عليها الخليفة عمر في جبهة الشام عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيوش هناك ، وتولية المهمة لأبي عبيدة عمر بن الجراح( ) ، لقد اسهب الكُتاب والمؤرخين المعاصرين في أمر هذا العزل وراحوا شمالاً وجنوباً محاولين تفسير الدوافع وراء ذلك ، فمنهم من رأى الموضوع متعلق بضغينة قديمة يخفيه الخليفة عمر تجاه خالد ، وذهب فريق آخر يعلل السبب على أنه قلق الخليفة عمر من تعلق الناس بشخص خالد

بن الوليد ومحاولة ابن الخطاب إبعاد فكرة انتصارات خالد بن الوليد الى أنه نصر الله( ) ، فيما دعا فريق ثالث الى أن المسألة كانت بسبب تصرف خالد بن الوليد بالمال من غنائم الحرب( ) .

ونجد أن الخليفة عمر قد فسر قضية العزل ونهى هذا الجدل من خلال قوله : والله يا خالد إنك عليَّ كريم وإنك إليَّ لحبيب( ) ، وكتب الى أهل الأمصار يوضح سبب عزله له قائلاً : إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن عزلته شفقة على النفوس من سرعة هجماته وشدة صدماته( ) ، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا بعرض فتنة( ) ، ولما وصل خبر وفاة خالد بن الوليد ترحم عليه الخليفة عمر بن الخطاب وقال : رحم الله أبا سليمان كان والله سداداً لحور العدو ميمون النقية( ) .

وهناك من فسر هذا الأمر على أنه متطلبات المرحلة فإن الفتوحات الاسلامية بعد أن أتسعت تطلبت المرحلة اللاحقة قادة إداريين أكثر منها عسكريين لاسيما معاهدات الصلح التي أجراها القائد البديل بكل نجاح ، وعلى الرغم من عزله عن قيادة الجيش ، إلا أنه ظل يقاتل وبحماسته ، ظل محل استشارة لم يستغني أحداً من القادة عن مشورته الحربية .

استمرت الفتوحات على جبهة الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى شبه استقرت سنة (٢٠هـ) حدثت خلالها العديد من المعارك والفتوحات منها عنوة ومنها صلحاً ، وسنستعرض بشكل مختصر أهم تلك الحوادث والتركيز على أشهرها :

س: ما أهم الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام خلال حكم الخليفة عمر بن الخطاب ؟

يعد خسارة القوات البيزنطية في أجنادين تمركزوا في دمشق وتحصنوا فيها ، ثم تجمعوا في فحل بيسان (شرق نهر الأردن) ، وهاجم لمسلمون هذا التجمع واشتبكا بمعركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين وجرت المعركة في ٢٨ ذي العقدة سنة ١٣هـ( )

، وفي أثر هذه المعركة سيطرة المسلمون على جميع مدن وقرى إقليم الأردن ، ثم خسر الروم البيزنطيين معركة أخرى في مرج الروم وقتل قائدهم( ) .

- فتح دمشق وحمص :

حاصر المسلمون دمشق في محرم سنة (١٤هـ) ، إذ تحصن أهل دمشق داخلها واغلقوا بابها آملين أن تصل إليهم النجدة من الروم لفك الحصار عنهم ، وقد دام الحصار سبعين يوماً وازداد التوتر بين أهلها لاسيما بعد فقدانهم الأمل بوصول قوة بيزنطية لنصرتهم وفك الحصار عنهم حتى استسلم أهلها وعقدوا الصلح مع المسلمين( ).

وبعد أن فتح المسلمون بعلبك سار أبو عبيدة الى حمص التي تركها هرقل وهرب الى أنطاكيا ، فعمد المسلمون الى حصار حمص على غرار ما حصل في دمشق وكانت النتيجة نفسها بعد أن يأس أهل حمص من أي فرص للخلاص من الحصار وصلحوا المسلمين على وفق شروط الفتح( ) .

س: لماذا قرر الخليفة عمر بن الخطاب وقف الأعمال العسكرية في جهة الشام سنة (١٤هـ)؟

استر المسلمون بفتوحاتهم بعد حمص نحو أنطاكيا وحلب ومن ثم حماه ، وصالح أهلها على الجزية ، ثم شيزر حتى بلغ معرة النعمان ففتحها المسلمون ، وبهذا الفتح أتم المسلمون فتح بلاد الشام الوسطى( ) .

وكان رأي الخليفة عمر أن يسقر المسلمون في حمص حتى نهاية العام قبل أن ينطلقوا الى الشمال ، وأمر بتوقيف حركة الفتوح في بلاد الشام لما في بقي من السنة( ) ، ولعل ذلك يرجع الى ما وصلت إليه الأوضاع العسكرية على الجهة الفارسية ، إذ كان سعد بن أبي وقاص يستعد للاصطدام بالفرس في القادسية مما يعني توجه الأنظار في حبنها نحو جهة العراق وما ستؤول إليه الأمور هناك( ) .

- معركة اليرموك :

اليرموك وادي بناحية الشام يقع بين بحيرة طبرية غرباً ووادي اليرموك جنوباً( ) ، وقد اختلف المؤرخين في سنة وقوعها ، فقسم منهم يرى نها وقعت في سنة (١٣هـ) في عهد أبي بكر ، ويمثل ذلك ما رواه الطبري ، فيما يرى فريق آخر أنها كانت في سنة (١٥هـ) في عهد الخليفة عمر ، ويمثل هذا الرأي ابن اسحاق والواقدي وخليفة بن الخياط والبلاذري وابن عساكر .

والرأي الراجح : أنها وقعت سنة (١٥هـ) ، فقد جاءت الروايات التاريخية تفيد بأن الروم قد حشدوا طاقات بشرية وعسكرية هائلة لهذه المعركة ، ولا يتحقق ذلك في سنة (١٣هـ) لأن الخطر الاسلامي الذي يهددهم لم يكن يكن بتلك الخطورة ، في حين نجدها وصلت ذروتها سنة (١٥هـ) بعد أن حققت الجيوش الاسلامية الانتصارات وفتح المدن تباعاً ، الأمر الذي دق ناقوس الخطر لدى الروم البزنطيين وجعلهم يفكرون في معركة فاصلة في محاولة منهم لاسترداد ما فتحه المسلمون من بلاد الشام( ) .

س: لماذا رد المسلمون أموال الخراج الى أهل حمص؟ وكيف تعاطى الأهالي مع هذا القرار؟

بعد أن أخذت الأمور تتجه نحو معركة شديدة من خلال الاستعدادات العسكرية لكلا الطرفين ، أمر أبو عبيدة انسحاب الجيش الاسلامي من حمص ورد أموال الخراج الى أهل حمص بسبب ترك المسلمين حماية حمص ووفاءً بالعهود ، قالوا المسلمين : شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم قائم على أمركم كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم( ) ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه وإلا فانا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد( ) .

وهكذا أدت عدالة الإسلام من خلال هذه الصورة الى وقوف أتباع الديانات الأخرى الى جانب الحكام المسلمين لما رؤى من صدق العمل والوفاء بالعهود .

شرع الإمبراطور البيزنطي في إعادة تشكيل قواته وتكثيفها لاسيما بعد خسارته عدة مدن في الشام ، وأخذ بفتح باب التطوع لكل من يستطيع حمل السلاح بما فيهم سكان العاصمة القسطنطينية ، واستطاع أن يجند ما يقارب مائة ألف مقاتل وتوجه بهم نحو فلسطين حيث تجمع المسلمون في اليرموك ، وكان تمركز الجيش الاسلامي في اليرموك من اختيار خالد بن الوليد الذي جعله أبو عبيدة لقيادة المعركة الذي بلغ عدده قرابة ستة وثلاثين ألف مقاتل( ) .

س: كيف نظم خالد جيش المسلمين وفقاً لتقدير المعركة؟

كان الجيش البيزنطي قد رتب على وفق نظام الكراديس ، كل كردوس مؤلف من ستمائة جندي ، وكل عشرة كراديس تشكل فرقة ، فضلاً عن ذلك وضع القساوسة أمام الجيش يحملون الصلبان في أيديهم لبث الحماس في نفوس الجند ، أما جيش المسلمون فانه لم يكن بنظام عسكري حديث قبل اليرموك ، الا أن نظرة خالد العسكرية وتحليله الى والواقع الذي يمر به اعتمد نفس النظام البيزنطي المتمثل بالكراديس وهو ما يعرف فيما بعد (التعبئة الخالدية)( ) .

وهكذا نظم الجيش الإسلامي في سنة وثلاثين كردوساً كل كردوس مؤلف من ألف مقاتل ، واعتمد المسلمون لأول مرة في تاريخ الحروب نظام الكراديس ، فضلاً عن ذلك جعل النساء في مؤخرة الجيش للعناية بالجرحى والمرضى وسقاية المقاتلين أثناء القتال وإثارة حماسهم ، فضلاً عن رد الرجال الفارين من المعركة ، وقد استمر ترتيب الجيش والمراقبة بين الطرفين أشهر عدة( ) .

ودارت في وادي اليرموك سلسلة من المعارك بين الطرفين على مدى خمسة أيام لم تكن متتالية انتقل فيها المسلمون من نصر الى نصر حتى توجوا هذه الانتصارات بضربة قاصمة وجهوها الى البيزنطيين يوم الواقعة وهو اليوم الخامس من القتال ، وكان يوم الاثنين الخامس من رجب سنة (١٥هـ)( ) ، فما انتهى ذلك اليوم حتى كان آخر مقاتل بيزنطي قد أخلى ساحة القتال أما هارباً أو جثة هامدة أو في قاع الوادي .

تعد معركة اليرموك من المعارك الحاسمة في الصراع الإسلامي – البيزنطي ، وقررت هذه المعركة مصير بلاد الشام ومستقبلها ، إذ فتحت أمام المسلمين باب الانتصارات المتتالية في هذه البلاد استمرت بعدها الفتوحات ومنها فتح فنسرين ، ومن ثم حلب وأنطاكيا( ) .

– فتح بيت المقدس ودخول الخليفة عمر بن الخطاب إليها :

س: لماذا رفض الخليفة عمر بن الخطاب الصلاة في كنيسة القيامة عند زيارته لبيت المقدس؟

استمرت الفتوحات الإسلامية في فلسطين ، إذ توجه عمرو بن العاص الى ؟؟؟؟ فتحها ثم ألحق بها نابلس وعمواس وعسقلان( ) .

ومما لاشك فيه أن لبيت المقدس أهمية بالغة عند المسلمين ، فهو مركز جذب روحي ، إذ إسراء الرسول الكريم إليه ومن ثم عرج منه الى السماء ، حاصر عمرو بن العاص المدينة وبدأ ذلك الحصار في الشتاء وكان البرد قاسياً يرافقه هطول أمطار غزيرة وتساقط الثلوج ، إذ كانت ظروف الحصار قاسية للمسلمين أيضاً ، فضلاً عن الأحوال الطبيعية ، استعمل البيزنطيين المحاصرين المنجنيق لضرب المسلمين ، وبسبب صعوبة الموقف أوعز الخليفة عمر بن الخطاب الى أبو عبيدة في إرسال إمدادات لعمرو بن العاص ، فضلاً عن قرار الخليفة القدوم الى بلاد الشام ليكون قريباً من مجرى الأحداث ، وهذا يعني أنه أولى فتح بيت المقدس عناية خاصة نظراً لأهميتها الدينية والروحية عند المسلمين( ) .

وبوصول أبو عبيدة وجيشه وخبر توجه الخليفة عمر بن الخطاب الى الشام ارتفت معنويات المسلمين المحاصرين لبيت المقدس ، يرافقه انهيار معنوي للبيزنطيين لاسيما بعد ادراكهم بعدم وصول أي امدادات عسكرية لنجدتهم مما حدى بالقائد البيزنطي الأرطبون الهروب مع قسم من جنده الى مصر وتسليم زمام القيادة الى البطريرك (صفرونيوس) ، وبعد حصار لأربعة اشهر اختار البطريرك الاستسلام بشرط أن يسلمها الى الخليفة عمر فقد علم بنزوله في الجابية( ) .

وقد دخل الخليفة عمر واصحابه الى بيت المقدس بعد عقد الصلح وكان هذا الصلح والذي سمي بالعهدة العمرية بمثابة عقد أمان لأهالي بيت المقدس على أن يدفعوا الجزية ، وجاء في بعض الروايات : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمر بن الخطاب لأهل مدينة الياء ، أنهم آمنون على دمائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم ألا تهدم ولا تسكن ، واشهد الشهود "( ) .

وقد دخل الخليفة عمر الى كنيسة القيامة وجلس فيها مع البطريرك فلما حان وقت الصلاة طلب البطريرك من عمر الصلاة في الكنيسة فهي من مساجد الله ، ولكن عمر اعتذر عن الصلاة فيها ، بأنه إن فعل سوف يتبعه المسلمون على تعاقب القرون ، إذ يرون عمله سنة مستحبة ، وبذلك سوف يضعون يدهم عليها ويحرمون النصارى منها ويخالفون بذلك عهد الأمان ، وصلى منفرداً في طرقات الكنائس ثم أعطى عهداً للنصارى ألا يصلى المسلمون على عتاب الكنائس جماعة ولا يجمعون في كنيسة لصلاة جماعة( ) .

وبعد أن مكث الخليفة عمر في بيت المقدس عشرة أيام ، عاد مع قادة جيشه الى الجابية لاستكمال مناقشات ومشاورات شؤون المسلمين وتنظيم ما تم فتحه من بلاد الشام( ).

وبهذا الفتح تسابقت المدن الأخرى في الشام لعقد الصلح مع المسلمين حتى وصلوا حدود أرمينيا ليدخلوا إليها في ذي العقدة سنة (٢١هـ) إلا أنهم خرجوا منها بسبب صعوبات الموقف هناك ليستقروا في أطرافها( ) .

- فتوح مصر وأفريقيا :

اجتمع عمرو بن العاص مع الخليفة عمر بن الخطاب في الشام وعرض على الخليفة أن نفتح مصر بعد أن أصبحت ضرورة لمد النفوذ الإسلامي ، سار عمرو بن العاص بجنده البالغ عددهم قرابة أربعة آلاف قاتل مخترقاً صحراء سيناء ومتخذ الطريق الساحلي حتى وصل الى العريش ، وهي أول مدينة مصرية من جهة الشام على ساحل البحر المتوسط( ) ، ومن ثم وصل فرما وفتحها في محرم سنة (١٩هـ) ، وأكمل مسيرته الى بلبيس( ) ، ومن ثم جرت معركة عين شمس في شعبان سنة (١٩هـ) انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين قادت هذه المعركة لفتح الفيوم ومنها الى فتح حصن بابليون( ) .

- فتح حصن بابليون :

س: كيف فتح المسلمين حصن بابليون رغم الصعوبات في ذلك؟

استمر حصار حصن بابليون أشهر عدة ، وكان من الصعوبة بمكان أن يفتح بسبب التحصينات وارتفاع منسوب نهر النيل ، فضلاً عن ذلك استمرت المفاوضات للصلح بين الطرفين أشهر عدة ، وانتهت المفاوضات بعدم موافقة هرقل إمبراطور البيزنطيين حتى وصل خبر وفاته سنة (٢٠هـ) والحصن محاصر ، الأمر الذي ضعضع وخلخل من الجيش البيزنطي ، وأخيراً تمكن الصحابي الجليل الزبير بن العوام مع نفر من المسلمين اعتلاء سور الحصن وكبروا ، فظن أهل الحصن أن المسلمين اقتحموه فهربوا تاركين مواقعهم ، فنزل الزبير وفتح باب الحصن لأفراد الجيش الاسلامي فدخلوه ، وبالتالي أجروا الصلح مع المسلمين في ٢١ ربيع الأول سنة (٢٠هـ) ، على أن يدفعوا الجزية مقابل عقد الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم( ) .

- فتح الإسكندرية :

يعد سقوط حصن بابليون في أيدي المسلمين بمثاب انهيار خط الدفاع الأول عن مصر ، إذ أصبح الطريق مفتوحاً الى فتح الإسكندرية( ) ، كما كانت الإسكندرية في ذلك الوقت قصبة الديار المصرية وثاني حواضر الإمبراطورية بعد القسطنطينية وأول مدينة تجارية في العالم ، وقد تحرك الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص نحوها في جمادى الأولى سنة (٢٠هـ) ، وبالمقابل وصل المقوقس بجيشه الى الإسكندرية قبل عمرو بن العاص ، وبذلك أطبق المسلمون الحصار على المدينة لمدة أشهر حتى اقتحموها في ٢٨ ذو القعدة سنة (٢٠هـ) بعد حصار دام أربعة أشهر ونصف( ) .

- التوسع نحو بلاد المغرب :

س: لماذا لم يسمع الخليفة عمر بن الخطاب للجيوش الاسلامية للزحف نحو شمال أفريقا؟

بعد أن استقرت الأوضاع في مصر خرج عمرو بن العاص بقواته من الإسكندرية سنة (٢٠هـ) نحو برقة التابعة للقوات البيزنطية ، إذ استسلمت المدينة بسهولة وأقيم الصلح معهم على ان تدفع الجزية لمن يرغب الدخول في الإسلام( ) ، ومن ثم سار عمرو نحو طرابلس وضرب الحصار عليها من قبل المسلمون بعد أن رفض أهلها الصلح

، وكانت يحدها من جهة الغرب البحر ، وهو المنفذ الذي تمكن منه المسلمون من اقتحام المدينة وهرب من هرب ومن جيشها وسط البحر حتى تمكن عمرو من دخولها( ) .

وكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في الزحف الى تونس وما ورائها من شمال أفريقيا ، فلم يأذن له ، وربما خشي الخليفة من تفرق المسلمون في بلاد واسعة ولم تثبت أقدامهم فيها بعد( ) .

– التنظيمات المالية والادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب :

كان اهتمام الخليفة عمر في الخمس سنوات الأولى من عهده ينصب نحو جبهات القتال في والفتوحات في العراق والشام ، إذ لم تشهد هذه الفترة أي تغيرات واضحة في التنظيمات المالية والادارية ، كما كانت عليه في عهد النبي ومن ثم أبي بكر الصديق ، ولكن وبعد أن توافرت للدولة موارد مالية ضخمة التي شكلت بمجموعها إيرادات الخزينة للدولة الاسلامية ، أصبح من الضروري بوضع نظام لإدارة المؤسسة المالية والتي تمثلت بالموارد المالية وطرق إنفاقها من خلال الدواوين أو بيت المال الذي يعد الخليفة عمر أول من أوجده في إدارة الدولة ، لذا سنستعرض إيرادات الدولة بعد الفتح وطرق إنفاقها بواسطة دواوين بيت المال .

س: ما أهم واردات الدولة المالية في عهد الفاروق ؟

١. الزكاة :

هي الركن الاجتماعي البارز في أركان الاسلام ، وهو تشريع سماوي فرض في أموال أغنياء المسلمين لتؤخذ منهم وتعطى للفقراء بحسب انصبتها المعروفة في الزروع والثمار والذهب والفضة وعروض التجارة والماشية ، وقد سار الخليفة عمر على نهج النبي وأبي بكر الصديق في تنظيم مؤسسة الزكاة وتطويرها لاسيما بعد اتساع مساحة البلاد الاسلامية( ) .

٢. الجزية :

وهي الضريبة التي تفرض على رؤوس من دخل في ذمة المسلمين من أهل الكتاب ، وقيل : سميت بالجزية لأنها تجزي عن الذمي( ) ، وهي تجب على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد ، فضلاً عن ذلك فهي لا تؤخذ من المسكين ولا من مقصر ولا من الأعمى ولا من المترهبون الذين في الديارات وتسقط الجزية بالموت ، كذلك اذا سلم الذمي تسقط عنه الجزية وإنها تسقط في السنة التي أسلم بها سواء في بدايتها أم وسطها أم أخرها فترد إذ دفعها وأسلم( ) .

وكان الخليفة عمر يأمر جباة الجزية بأن يرفقوا بالناس في جبايتها ، أما وقتها فقد حددها الخليفة عمر في أواخر الحول أي أخر العام الزراعي ، وهو وقت إتيان الغلات ، وفيه تسهيل للمكلفين وراحة للدافعين( ) .

٣. الخراج :

س: لماذا لم يوزع الخليفة عمر بن الخطاب الأراضي المفتوحة على المسلمين كغنائم؟ بل لجأ حبسها بيد أصحابها؟

الخراج : هو إيراد الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة واوقفها الامام بيد أصحابها لمصالح المسلمين على الدوام كما فعل الخليفة عمر في أراضي العراق والشام( ) .

فبعد الفتوحات في العراق والشام واتساع الأراضي المفتوحة أراد الفاتحون المسلمون أن تقسم عليهم كما قسمت الأموال والغنائم ، فكان الخليفة عمر لا يرى ذلك ، فأراد أن تبقى بيد أصحابها وأن يدفعوا خراجها ، وبذلك يوفر أموال مستمرة ترفد بين مال المسلمين قائلاً : وقد رأين أن أحبس الأرض بعلوجها وخصاً عليهم فيها الخراج ، وقال : إن هذه الأراضي لو وزعت على الفاتحين لم يكن لمن جاء من بعدهم شيء، وبهذا تبقى لأهل البلاد المفتوحة سرواتهم ، فضلاً عن عدم افتتان الجند المسلمين بالثروة والمال ، وبذلك يوفر أموال لخزينة الدولة( ) .

وقد وجه الخليفة عمر في أمر تحديد نسبة الخراج من خلال تحديد ثروة الأفراد وخصوبة الأرض وجدبها ، ونوع النباتات والشجر والرفق بالرعية ، فلا تحمل الأرض ما يستعمله المكلفون بل يترك لهم ما يحبرون به النوائب والحوائج( ) ، وهذه الطريقة نفذت في سواد العراق ومصر والشام ، وبذلك كثرت الممتلكات الخاصة بالدولة ، إذ كانت تدر دخلاً عظيماً ووفيراً لخزينة الدولة لاسيما في مصر لاتساع الأراضي الزراعية فيها( ) .

٤. العشور :

وهي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الاسلامية سواء داخلة أو خارجة منها ، وهي بمثابة الرسوم الكمركية في العصر الحاضر ، إذ يقوم بتحصيلها موظف يقال له : العاشر ، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النبي وخلافة أبي بكر الصديق ، وقد استحدثها الخليفة عمر بعد اتساع المساحة الاسلامية ، إذ كانت في السابق تفرض على العرب والمسلمين من قبل دول أخرى( ).

وقد أخذت العشور من التجار المسلمين أيضاً والذميين ولكن بنسب أقل ، وساهم هذا التشريع الجديد في تنظيم العلاقات التجارية بين الدول ، مما أدى لمكاسب أموال جديدة اضيفت الى خزينة الدولة( ) .

٥. الفيء والغنائم :

س: ما الفرق بين الفيء والغنيمة؟

الفيء : كل ما يحصل عليه المسلمون من أموال من المشركين من غير قتال ، أما الغنيمة : هو ما يحصل عليه المسلمون عنوة أي بقتال ، وفي خلافة عمر زادت الغنائم زيادة كبيرة جداً لاتساع المناطق المفتوحة ، فضلاً عن ازدهارها مما تحويه من كنوز الملوك والأموال لاسيما سواد العراق وما تلاه من بلاد فارس( ) .

– بيت مال المسلمين وديوان العطاء :

بيت المال : و المكان الذي ترد إليه جميع موارد الدولة ، فضلاً عن صرف تلك الأموال من قبيل اعطيات الخليفة والجند والقضاة والعمال ، وإن هذه العملية تكون مثبتة في سجلات ودفاتر ، وقد اطلقت كلمة ديوان على المكان الذي يجمع فيه الكتاب والموظفين العلمين بتلك السجلات ، ولم يكن في بداية عصر الرسول بين مال ، فكانت الغنائم توزع على الفور ، وقد سار أبي بكر الصديق على النهج نفسه ، وبعد اتساع دولة الاسلام إذ امتدت حدودها شرقاً وغرباً ، وبالتالي ازدادت الواردات لاسيما بعد فتح العراق والشام ، الأمر الذي أدى الى إنشاء بين المال ، ومن ثم كتابة هذه النفقات في سجلات ودفاتر وهو ما عرف بديوان العطاء .

فكثرت الجيوش احتاجت الى ضبط احتياجاتهم واسماء رجالها خوفاً من ترك أحدهم دون إعطاء أو تكرار العطاء ، وبالتالي أصبح إنشاء الديوان لهذا الغرض ضرورة قصوى ، ويعد الخليفة عمر بن الخطاب أول من وضع الديوان في دولة الاسلام( ).

س: ما قصة استحداث الديوان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب؟

مفاد هذه القصة أن أبا هريرة قدم من البحرين ومعه خمس آلاف درهم ، وقال لعمر بعد أن سأله عن أحوال الناس : قد جئت بهذا المبلغ ، فتعجب الخليفة عمر بهذا المال حتى شك فيما يقول أبا هريرة ، إذ كان الرقم خيالي بالنسبة لتلك المرحلة ، وبعدما تحقق الخليفة مما يقول أبو هريرة صعد المنبر فقال : لقد جاءنا مال كثير فإن شئتم أن نكيلكم كيلاً أو نعدكم عداً ، فقالم إليه رجال فقال : يا أمير المؤمنين إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدون ديوناً لهم ، وقد استشار الخليفة عمر المسلمين في تدوين الدواوين ، فدونه المسلمين من ذلك الوقت( ) .

وأغلب الروايات التاريخية تشير الى أن ديوان العطاء استحدث عام (١٥هـ) ، إذ اقتصر على المدينة المنورة ، ومن ثم أخذ هذا الديوان بالتطور والتوسع حتى شمل كل الأمصار الاسلامية ، ولذلك من يذكر من المؤرخين أن ديوان العطاء أنشأ عام (٢٠هـ) مثل البلاذري ، في حين يشير الطبري الى أنه أوجد عام (١٥هـ) ، وبذلك يكون بين التاريخين عمليات تطوير لهذا النظام الجديد( ) .

وقد سار الخليفة عمر على تقسيم الأموال على خلاف ما سار عليه الخليفة أبو بكر الصديق إذ كان يقسم الأموال بين الناس بالتساوي ، في حين قسم الخليفة عمر اعطياتهم على حسب سابقتهم في الاسلام والفضل في الجهاد ونصرة رسول الله وقرابته قائلاً : لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه( ) .

وبهذا صنف الخليفة عمر المسلمين الى فئات فئة أسلمت قبل الفتح وقاتلت معه في بدر وأُحد وشهدوا الهجرتين (الحبشة والمدينة) ، وفئة أسلمت بعد الفتح (فتح مكة) ، وفئة صمدت واستمسكت بالإسلام حين ارتد العرب ، فضلاً عن ذلك فقد خص قرابة رسول الله بعطاء خاص لاسيما العباس عمر النبي والحسن والحسين (عليهما السلام) ، وزوجات النبي ، وقد سمي هذا الديوان أو السجل بديوان الجند على أساس أن جميع المسلمين هم جند للجهاد( ) .

س: ما لغة الدواوين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ؟

أما عن لغة كتابة الدواوين إذ عمل سجل الجند باللغة العربية بالمدينة على يد نوابغ من قريش وعلماء والانساب ، إذ بقيت دواوين الأقاليم باللغة غير العربية حتى عربت في عهد عبد الملك بن مروان سنة (٨١هـ)( ).

فكانت دواوين العراق تكتب باللغة الفلهوية الفارسية ، ودواوين الشام باللغة الرومية ، ودواوين مصر فكانت باللغة القبطية( ) .

س: ما أهم الاختلافات بين ديوان العطاء وديوان الجباية؟

ويشير ابن خلدون الى التميز بين الدواوين مؤكداً : إن ديوان الخليفة عمر ديواناً داخلياً (ديوان العطاء والجند) لا علاقة له بمسائل تنظيم وجمع الضرائب من خراج وعشر وجزية ، فإن شؤون ضبطها من جمع وتنظيم بقيت من مهام وصلاحيات الدواوين في الاقاليم المفتوحة( ) .

يكون الفرق الأول هي أن ديوان العطاء خاص بصرف المال وبعض الغلات الزراعية للمسلمين ، وهو ما عرف بديوان عمر ، في حين باقي الدواوين هي خاصة لجمع إيرادات الدولة من البلاد المفتوحة ، والفرق الآخر يكون أن لغة ديوان عمر العربية ، في حين ديوان الأقاليم بلغات غير العربية حتى عربها عبد الملك بن مروان.

س: هل من عواقب على المجتمع الاسلامي نتيجة إتباع سياسية التفضيل في العطاء؟

إن سياسة التفضيل المتبعة في توزيع العطاء قد أوجدت مشكلة في التوازن الاجتماعي ، فولدت فوارق طبقية بين أبناء المجتمع الاسلامي ، ففي الوقت الذي أخذ أصحاب الايرادات العالية وهم الرعيل الأول من الصحابة يستثمرون أموالهم بالتجارة وينمونها لاسيما قريش وهم المشهورين بالتجارة ، نجد أصحاب العطاءات الأقل منهم وهم أغلبية الجند ، كانا ينفقون كل ما يأتيهم من عطاء على معيشتهم ، لذا كان يظهر هنا وهناك بعض التذمر

لاسيما عندما يقل العطاء سبب قلة الايرادات ، وقد استمرت هذه المشكلة الى عهد الخليفة عثمان بن عفان حتى ألغى الامام علي هذه السياسة في خلافته وأعاد ما كان في أيام النبي وعهد أبي بكر الصديق والمتمثلة بالمساواة في العطاء بين الجميع .

– التنظيمات الادارية والعمرانية :

أولاً. التطور العمراني (تمصير الأمصار) :

مع توسع رقعة الدولة وكثرة الفتوحات فقد احتاج الجند الى أماكن يستريحون فيها من عناء السفر ، فلابد لهم من منازل يأوون إليها شتاءً وإذا رجعوا من غزوهم ، لذلك كانت من الأهمية بناء المدن لإقامة حياة إسلامية ، فبنيت الأمصار الاسلامية على نمط إسلامي تتوسط كلاً منها المسجد ومقر الإمارة ، فضلاً عن إنشاء البيوت للجنود .

س: ما أهم الاعتبارات والشروط الواجب توافرها لبناء المدن في عهد الفاروق ؟

ومن خلال الروايات التاريخية استنتج الباحثين الاعتبارات والشروط اللازمة لإنشاء المدن ومنها :

١. أن تكون على مشارف أرض العرب مما يلي أرض العجم لتبقى حصوناً منيعة لا يطمع العدو في تجاوزها .

٢. أن يراعى في اختيار المدن المراد بناؤها طبيعة الأرض بأن تكون صالحة لمرعى المواشي .

٣. تأمين مصادر المياه على أن لا يكون بحر يفصلها عن قاعدة الخلافة المركزية.

س: ما أهم المدن التي مصرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ؟

١. البصرة :

استشار عتبة بن غزوان والي البصرة الخليفة عمر بن الخطاب النزول في البصرة ، فوافق الخليفة على ذلك وأمره أن يبني بها ، فخط عتبة سنة (١٤هـ) مسجدها ودار الإمارة ودور للجنود ، ولكنها كانت من قصب ، فكانوا إذا غروا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بنائها كما كانت ، ولما تولى أبو موسى الأشعري ولاية البصرة أمره الخليفة عمر بناء المسجد ودار الإمارة باللبن والطين وسقفها ، ثم بنوها بالحجارة ، وجعلوا رحبة فسميت لمرابط الخيول ومقبرة ، فضلاً عن ذلك فقد حفر نهراً لأهل البصرة وهو نهر الابلة ، وبذلك وفدت أخلاط من القبائل فواد عدد سكانها زيادة كبيرة( ) .

٢. الكوفة :

بعد أن وجد الخليفة عمر بن الخطاب سوء حال المسلمين من سكنة المدائن والقادسية ، كتب الى سعد بن أبي وقاص أمير العراق يأمره أن يتخذ للجيش مكاناً آخر ، وبعد تكليف سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان استكشاف مكان يصلح للجيش من أراضي العراق حتى رشحا أرض الكوفة ، انتقل إليها سعد بن أبي وقاص سنة (١٧هـ) واستأذنوا الخليفة عمر بن الخطاب في البناء باللبن والطين بعد أن كان بالقصب والخيام فوافق على ذلك فبنا فيها المسجد ومقر الإمارة ، وقد نزل الكوفة الى جانب المسلمين من يهود ونصارى نجران( ) .

وقد ارتفع شأن البصرة والكوفة بعد تمصيرهما وعظم أمرهما فحملتا لواء العلم والأدب ، فضلاً عن انتقال مقر الخلافة من الحجاز الى الكوفة في عهد الامام علي بن أبي طالب .

٣. الفسطاط (القاهرة حالياً) :

بعد أن فتحت مصر سنة (٢٠هـ) تم اختيار مدينة الفسطاط (القاهرة حالياً) ، إذ بنى فيها المسجد ودار الإمارة واختط الناس من حولها( ) ، فضلاً عن ذلك فقد وجه الخليفة عمر بن الخطاب بحفر خليج من نهر النيل نحو البحر الأحمر كي يسهل عملية الاتصال بالحجاز الى جانب نقل البضائع من مصر الى مكة والمدينة( ) .

- توسيع المسجد النبوي والمسجد الحرام :

قام الخليفة عمر بن الخطاب بتوسيع مسجد رسول الله ، إذ امتدت التوسعة عشرة أذرع من جهة القبلة ، وعشرين ذراعاً من الناحية الغربية ، وسبعين ذراعاً من الناحية الشمالية ، فضلاً عن ذلك أعاد بناء المسجد باللبن والجريد ، وكان المسجد تراباً ففرشه بالحصى ليكون أنظف للمصلين( ) .

أما الحرم المكي فقد أجرى الخليفة عمر بن الخطاب بعض التوسيعات فيه ، إذ اشترى دوراً حول الحرم المكي ليزيدها في مساحة الحرم ، واتخذ للبيت جداراً قصيراً من دون القامة ووضع المصابيح فيه ، وكسا الكعبة بالقبطي ، وهي ثياب رقيقة بيضاء( ) .

- القضاء :

القضاء في اللغة : يأتي بمعنى الحكم ، أما في الاصطلاح : فهو إظهار لحكم الله تعالى وأخبار عنه ، وهو الحكم بين الناس بالحق وبما أنزل الله عز وجل( ) .

وأول قاضي في الاسلام هو سيدنا النبي محمد فكان يحكم بين الناس بما أزل الله إليه سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ما داموا يعيشون ضمن إطار الدولة الاسلامية ، أما في المدن البعيدة فكان الأمراء الذين يعينهم النبي يقومون بأمر القضاء .

وكان عهد الخليفة أبي بكر الصديق شبيهاً بعهد الرسالة من حيث وضع القضاء والقضاة لاسيما في الأمصار البعيدة ، فالوالي هو القاضي ، أما في المدينة فإن الخليفة أبا بكر هو من يقضي بين الناس و وكل هذه المهمة الى عمر بن الخطاب .

س: لماذا فصل الخليفة عمر بن الخطاب القضاء عن الإمارة؟

أما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فكانت البداية الجمع بين الإمارة والقضاء ، إذ كان الوالي هو من يقضي بين الناس ، إلا أنه مع ازدياد مساحة الاقاليم الاسلامية وزيادة المسامين وكثرة المال كان لابد من تولية أعواناً له يفضون مصالح الأفراد .

فكان أو ما فعله الخليفة عمر فصل القضاء عن الولاية ، فجعل الى جانب الوالي قاضياً ينظر في أمور القضاء لا عمل له غيره ، وقد نفذ هذه الخطة في الولايات الجديدة التي فتحت غي عهده في العراق والشام ومصر ، وكان الخليفة هو من يختار القضاة بنفسه أو يكتب لنوابه ليختاروا الصالحين للقضاء فيولوهم ، وقد فرض الخليفة عمر راتب للقضاة الذين فرغهم للعمل في ميدان القضاء( ) ، وإن لم يكن استقلالاً كاملاً للقضاء عن سلطة الإمارة ، إلا أنها كانت البداية في قيام المؤسسة التشريعية التي نمت وتكاملت وأصبح لها أساسها وتنظيمها في عهود لاحقة( ) .

- عام الرمادة وطاعون عمواس :

من الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتحديداً سنة (١٨هـ) ، إذ أصاب الناس شديدة وجدب وقحط ، وهو ما يسمى بعام الرمادة ، فكانت الريح تسفي تراباً كالرماد فسمي بعام الرمادة ، وقد أصيب هذا القحط المدينة والحجاز ودام تسعة أشهر واشتد الجوع بذلك العام( ) .

وأقسم الخليفة عمر أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس ، وقد كتب الى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة وما حولها ويستهديهم ، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من الطعام فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ، فضلاً عن ذلك أرسل عمرو بن العاص عن طريق بحر القلزم طعاماً الى المدينة فصار بالمدينة كسعر مصر ولم يرى أهل المدينة بعد الرمادة مثلها ، وبعدها صلى الخليفة عمر

الاستسقاء متوسلاً بالعباس عم النبي قائلاً : " اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه " ، حتى امطرت السماء مطراً غزيراً( ) .

أما طاعون عمواس فقد حدث في السنة نفسها بالشام فمات فيه أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان وصحابة آخرين ، وقيل : أن الخليفة عمر بن الخطاب قدم الى الشام وفي أثناء الطريق أخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه جمع من الصحابة حتى قال عبد الرحمن بن عوف : أن النبي قال : " إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه " ، فانصرف الخليفة عمر بالناس الى المدينة ، وقد أصاب الناس من الموت ما لم يروا مثله قط ، إذ مكث شهوراً ، ويقدر عدد من مات في هذا الوباء (الطاعون) بخمسة وعشرين ألف شخص( ) .

– لولا علي لهلك عمر :

من أبرز ما يلاحظه المتأمل في خلافة عمر بن الخطاب ذلك التعاون المتميز الصافي بين الخليفة عمر والامام علي ، فقد كان الامام علي بن أبي طالب المستشار الأول للخليفة عمر في سائر القضايا والمشكلات ، وما اقترح الامام علي على الخليفة عمر رأياً إلا واتجه الخليفة الى تنفيذه عن قناعة .

فقد وردت عدد من الروايات التي تشير الى اسلام عمر حين قال : لولا علي لهلك عمر ، إذ حكم الخليفة عمر بن الخطاب في عدد من القضايا لاسيما حادثة رجم المرأة الفاجرة ، فبعد أن أمر الخليفة عمر بذلك أوقف الحكم علي بن أبي طالب ، وذكر الخليفة كيف ترجم وهي حامل ، فأوقف الحكم الخليفة عمر وقال : " لولا علي لهلك عمر ، فضلاً عن ذلك قال في موضع آخر : " اللهم لا تنزل بي شدة إلا وأبو الحسن الى جنبي "( ) .

الى جانب ذلك فقد نصح الامام علي الخليفة عمر أن لا يذهب للمعركة بنفسه ، وكانت معارك الفتوح ، وأن يدير رحى الحرب بمن دونه من العرب وهو في مكانه محذراً إياه من الذهاب خشية نشوء ثغرات داخل صفوف المسلمين ما هو أخطر من العدو الذي سيواجهه ، ومن هنا نستدل على قوة العلاقة التي تجمع الاثنين .

– مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ونهاية عهده :

س: هل أن قتل الخليفة عمر بن الخطاب جاء بمؤامرة يهودية مجوسية؟ أم أنه عمل منفرد من قبل الجاني؟

في فجر يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذي الحجة عام (٢٣هـ) خرج من منزله ليؤم الناس لصلاة الفجر ، وما أن بدأ بتكبيرة الصلاة دخل في تلك اللحظة رجل جانب الخليفة عمر وهو أبو لؤلؤة المجوسي واسمه فيروز ، وهو فارسي الأصل من سبي نهاوند ، وكان خادماً للمغيرة بن شعبة ، فطعن الخليفة عمر طعنات عديدة بخنجر مسموم وله حادان ، وحاول القاتل الهرب فتصدى له المصلون فراح يطعن بهم يميناً وشمالاً فأصاب ثلاثة عشر منهم مات منهم ستة ، حتى تمكن أحد المصلين من إلقاء ردائه عليه وطرحه أرضاً ، وعندما أيقن أبو لؤلؤة أنه مقتول لا محال ضرب نفسه بالخنجر نفسه ومات( ) .

وقد نقل الخليفة عمر بن الخطاب الى منزله وهو ينزف ، ولما علم أن أبو لؤلؤة هو من طعنه حمد الله الذي لم يجعل قاتله من سجد الله أو من المسلمين ، ثم قال لبنه : انظر ما عليَّ من ديون وأدها عني ، ثم قال له : أذهب الى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فقل : يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه ، ذهب إليها فقالت : كنت أريده – يعني المكان – لنفسي ، ولأثرنه اليوم عليَّ فحمد الله عمر على ذلك ، وقد دفن يوم الأحد غرة شهر محرم سنة (٢٤هـ) فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة( ) .

أما عن أسباب ودوافع الاغتيال ، فقد جاء أبو لؤلؤة الى الخليفة عمر يشكو سيده المغيرة ، لأنه وضع عليه خراجاً ثقيلاً ، وعندما سأله الخليفة عمر : كم خراجك؟ ، قال : درهمين يومياً ، وأجاب عن صناعته ، قال : نجار ، حداد ، نقاش ، قال عمر : ما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، فحقد على الخليفة عمر بن الخطاب وقام باغتياله( ) ، والحقيقية إن هذا السبب لا يبدو كافياً لاغتيال رئيس الدولة ، فلابد من أن هناك أسباب ودوافع أخرى( ) .

إن هذا الغموض في أسباب عماية الاغتيال قد فسح المجال أمام المؤرخين للبحث وتخمين الأسباب والدافع ، وإن أغلب المؤرخين يضعون نصب أعينهم العوامل الخارجية ، فقد تكون مؤامرة يهودية مجوسية ، إذ قضى الخليفة عمر بن الخطاب على الامبراطورية الفارسية وأخرج البيزنطيين من بلاد الشام ومصر ، فضلاً عن ذلك اخراج اليهود من جزيرة العرب ، ما ولد حقد دفين ضد الاسلام بعامة والخليفة بخاصة ، فحاكوا هذه المؤامرة التي كان أبو لؤلؤة أداتها والله أعلم( ) .

- انتقال الخلافة لأحد أهل الشورى :

في أثناء مرض الخليفة عمر بن الخطاب رفض أن يعين خليفة له ، ورفض فكرة أن يعين أحد من أفراد عائلته خشية تحويل الحكم الى الوراثة ، إلا أنه اختار قبل وفاته مجلساً للشورى مؤلفاً من : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وعرفوا بأهل الشورى ، وقد توفي النبي وهو راضٍ عنهم ، وإن يختار المجلس أحد أفراده ليكون خليفة للمسلمين .

وهم يمثلون أبرز رجالات المسلمين وخيرة الصحابة ودعاهم الى عدم الاختلاف ، ثم حدد لهم طريقة الانتخاب بقوله : " فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ويصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر " ، وبالفعل اجتمع المجلس بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب ما عدا طلحة كان خارج المدينة ووصلوا بعد مناقشات الى اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين( ) .

- خلاصة القول :

١. تولى عمر بن الخطاب الخلافة في ٢٢ جمادى الآخرة سنة (١٣هـ) ، وقتل في ذي الحجة من عام ٢٣هـ ، وكانت مدة حكمه عشرة سنين وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة .
٢. شهد عصر الخليفة الفاروق أكبر الفتوحات الاسلامية في العراق والشام ومصر .
٣. بسبب زيادة واتساع الاقاليم الاسلامية كثرت الأموال مما دعا الى استحداث بيت المال وديوان العطاء ، فالخليفة عمر بن الخطاب أول من أنشأ بيت المال والدواوين في الاسلام .
٤. عرف عن الخليفة عمر بن الخطاب الزهد والورع والعدالة وشدة محاسبته لولاته .
٥. أول من فصل القضاء عن الإمارة وجعلها هيأة مستقلة في أغلب المدن الاسلامية.
٦. شهد التاريخ من خلال الوقائع تسامحه مع أهل الكتاب والذميين من خلال الجزية والحفاظ على أديرتهم وكنائسهم وتعويض من أُخرج من جزيرة العرب (النجرانيين).
٧. وضع في زمن الخليفة عمر بن الخطاب التاريخ الهجري ، وأول من مصر المدن ومنها البصرة والكوفة والفسطاط ، وهو أول من لقب بأمير المؤمنين .

ثالثاً. الخليفة عثمان بن عفان :

– اسمه ونسبه وكنيته :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، ويلتقي نسبه بنسب رسول الله في عبد مناف( ) ، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وهي شقيقة عبد الله والد النبي ، وقيل : أنهما ولدا توأماً( ) ، ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل في مكة ، وهو أصغر من النبي بخمس سنوات( ) .

س: لماذا سمي عثمان بن عفان بذو النورين؟

كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو ، ولما زوجه رسول الله من أبنته رقية أنجبت له عبد الله وبه كان يكنى الذي توفى في عمر الست سنوات( ) ، وتزوج عثمان بعد وفاة رقية أختها أم كلثوم ، إذ لا يعرف في العالمين من تزوج ابنتي نبي غيره ولذلك سمي ذا النورين( ) .

وبعد وفاة أم كلثوم تزوج عدة زوجات كان أخرها نائلة بنت الفرافصة وكانت نصرانية أسلمت وحسن ألامها ، وكان له تسعة أبناء من الذكور خمسة والباقي من البنات( ) .

– حاله في الجاهلية :

كان عثمان بن عفان قبل الاسلام من أثرياء مكة ، وعرف بالحياء فكان قومه يحبونه ويوقرونه ، لم يسجد في الجاهلية لصنم قط ، ولم يقترف فاحشة ولم يشرب الخمر قبل الاسلام ، وكان يقول : أنها تذهب العقل ، ولم ينجذب الى أغاني وحلقات اللهو ، إذ قال عثمان : لا زينت في جاهلية ولا في اسلام ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام( ) ، وكان على علم بمعارف العرب في الجاهلية والأنساب والأخبار ، وساح في الأرض فرحل الى الشاك والحبشة ، وعاشر أقواماً غير العرب فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه كل إعرابي في بلاده( ) ، فضلاً عن ذلك أهتم بتجارته التي ورثها عن والده إذ نمت تلك الثروة والتجارة قبل وبهد الاسلام( ) .

– إسلامه :

دعي عثمان بن عفان الى الاسلام وسنه يقارب الرابعة والثلاثين ، إذ دعاه أبو بكر الصديق الى الدين الجديد فلم يتلكأ أو يتلعثم ، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصديق ، فكان بذلك من السابقين الأولين ورابع من أسم من الرجال بعد أبا بكر وعلي وبن أبي طالب وزيد بن حارثة ( ) .

وذكر ابن سعد : إن عثمان قد رأى وهو في الشام رؤيا فقصها على رسول الله ومفادها : " إن منادي نادى ونحن نيام ، أيها النيام هبوا فإن احمد قد خرج في مكة ، فقدمنا وسمعنا بدعوتك "( ) .

– صحبته للرسول وزواجه من ابنتيه :

فرح المسلمون بإسلام عثمان بن عفان ، وكان محبوباً من قبل رسل الله ، فكان له شرف المصاهرة مع النبي ، إذ زوجه من ابنته رقية ، وقصة ذلك : أن رقية قد تزوجت من عتبة بن أبي لهب وأختها أم كلثوم تزوجها عتيبة بن أبي لهب ، فلما نزلت سورة المسد : (تبت يدا أبي لهب) ، قال أبا لهب لابنيه : فارقا ابنتي محمد ، ففارقاهما ، وما أن سمع عثمان طلاق رقية حتى بادر الى خطبتها من رسول الله فزوجها له( ) ، وقد أنجبت له عبد الله الذي توفي في السادسة من عمره ، وقد توفيت رقية سنة (٢هـ) يوم بدر ، إذ تخلف عثمان بن عفان عن الغزوة بأمر النبي ليمارض زوجته ، وقد ضرب له سهم من غنائم بدر وعُدَّ بذلك من أهل بدر( ) ، ثم زوجه رسول الله من بعدها بابنته أم كلثوم التي توفيت في السنة التاسعة للهجرة ، فقال رسول الله لعثمان : " لو أن لنا ثالثة لزوجناك "( ) ، وهذا دليل لحب النبي لعثمان .

– هجرته للحبشة والمدينة :

س: ما هي أسباب هجرة عثمان بن عثمان الى الحبشة؟

لقد ابتلى المسلمين المكيون أشد البلاء لاسيما الرعيل الأول إذ تحملوا أشد العذاب والمضايقات من أبناء قومهم بسبب انتمائهم لهذا الدين الجديد ومنهم عثمان ، فقد أوذي وعُذب وصبر في سبيل الله على يد عمه الحكم بن أبي العاص الذي أخذه فأوثقه ربطاً وعذبه حتى يعود عن دينه ، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه( ) ، فضلاً عن ذلك تعرض المسلمين الى إيذاء وعذاب لم يعيشوه من قبل بسبب إسلامهم ، وإن المسلمين كانوا من الضعف مما سهل أمر البطش بهم لأنهم قلة قليلة ومبتلين ، ثم قال رسول الله للمسلمين : " لو خرجتم الى الحبشة ، فإن بها ملكاً صالحاً لا يظلم عنده أحداً "( ) .

وبدأت الهجرة الى الحبشة فمنهم من ركب الدواب وبعضهم يسير على الأقدام حتى وصلوا ساحل البحر الأحمر ، ثم أُمّروا عليهم عثمان بن مظعون وشاءت عناية الله أن يجدوا سفينتين فركبوا حتى وصلوا الحبشة ، إذ وجدوا الأمن والأمان وحرية العبادة ، وكان ممن هاجر الى الحبشة في الهجرة الأولى والثانية عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ، وكان ذلك سنة خمسة للهجرة( ) .

ولما أشيع إن أهل مكة قد أسلموا وبلغ ذلك مهاجري الحبشة عادوا الى مكة حتى وجدوا هذه الأخبار بعيدة عن الصحة ، وكان فيمن رج عثمان بن عفان وزوجته رقية واستقروا في مكة حتى أُذن لهم الرسول بالهجرة الى المدينة المنورة( ) .

– جهاده وذوده عن الاسلام :

لقد شهد عثمان بن عفان المشاهد كلها مع الرسول إلا غزوة بدر ، وذكرنا أن رسول الله قد أمره بالبقاء الى جانب رقية لتمريضها ، وكان ذلك امتثالاً لأمر رسول الله وعُد بدرياً إذ أصاب من غنائم المعركة( ) .

أما في أُحد فكان عثمان بن عفان قد فر مع طائفة من المسلمين الى مكان قرب المدينة حتى انتهت المعركة ، وفي غزوة غطفان حيث خرج رسل الله في أربعمائة رجل ومعهم بعض الجياد إذ استخلف على المدينة عثمان بن عفان ( ) ، وفي غزوة ذات الرقاع فقد غاب رسول الله خمسة عشر يوماً عن المدينة استخلف عثمان بن عفان عليها( ) .

– صلح الحديبية :

عندما نزل رسول الله الحديبية رأى من الأهمية والضرورة إرسال مبعوث الى زعماء مكة يبلغهم فيها بعدم الرغبة في القتال ، وجاء لإداء العمرة ومن ثم العودة الى المدينة ، فناقش رسول الله الأمر مع الصحابة حتى استقر الرأي على إرسال عثمان بن عفان وقال له رسول الله : " اذهب الى قريش فخبرهم إنا لم تأتِ لقتال أحد ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهدى ، ننصره وننصرف "( ) ، حتى وصل عثمان مكة والتقى رجالاتها وزعمائها ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً( ).

وعرضوا على عثمان بن عفان أن يطوف بالبيت فأبى ، وقد أُشيع أخبار مقتل عثمان في مكة الى أهل الحديبية ، فدعا رسول الله أصحابه الى مبايعته على قتال المشركين والصبر وعدم الفرار حتى وضع النبي يده الشريفة اليمنى على الأخرى وقال : هَذه عن عثمان ، وكان عدد الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة ألف وأربعمائة صحابي ، وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾( ) .

– تجهيزه جيش العسرة (غزوة تبوك) :

س: ماذا قال النبي في عثمان بن عفان بغزوة تبوك؟

وصلت الأخبار سنة (٩هـ) الى النبي أن الروم يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة العربية ، وكان الحر شديداً ، فنادى الرسول بالتهيؤ والجهاد ، وكانت البلاد ؟؟؟؟ الجدب والعسرة ، والجيش الاسلامي يحتاج الى أسلحة وما يلزم للحرب ، فدعا رسول الله الى التبرع وقال : من يجهز هؤلاء (أي الجيش) ويغفر الله له ، حتى نهض عثمان بن عفان لهذا النداء وجهز الجيش حتى لم يترك حاج الى ذلك إذ قدم لجيش العسرة مئات الجمال والخيول فضلاً عن عشرة آلاف دينار ، حتى قال الرسول : " ما ضر عثمان ما عمل بعدم اليوم "( ) .

وبذلك مضى الجيش لملاقاة الروم في منطقة تبوك التي تقع بين المدينة ودمشق ، حتى وصلت الأخبار أن هرقل عظيم الروم انسحب من مواجهة المسلمين مغادراً دمشق بعد أن سمع بخروج النبي على رأس جيش لملاقاته ، فعاد الجيش منتصراً دون قتال ومعه العدة التي جهزها عثمان بن عفان ولم يسترجع منها شيء تركها وقفاً للمسلمين( ) .

– شراءه بئر رومة وجعله وقفاً للمسلمين :

عندما قدم النبي المدينة المنورة وجد أن الماء العذب قليل وليس بالعذب ألا عند بئر رومة ، ولقد كانت رومة قبل مقدم النبي الى المدينة لا يشرب منها إلا بثمن ، وكانت لرجل من بني غفار ، وقيل : لرجل يهودي ، فدعا الرسول صاحبها الى أن يهبها للناس مقابل عين في الجنة ، فرفض ، ولما سمع عثمان بن عفان بهذا العرض اشتراها فجعلها صدقة للمسلمين( ) .

– الحياء أبرز صفاته :

ذك في الأثر أن رسول الله جمع ثيابه حين دخل عثمان بن عفان ، وقال عن ذلك : " ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة "( ) ، وحيائه الذي عرف به ما هو إلا خصلة من خصال العباد المقربين والأولياء الصالحين( ) .

– عثمان بن عفان في عهد الخليفة أبي بكر الصديق :

عرف إن عثمان كان من أهل الشورى لدى الخليفة أبا بكر الصديق ، وتذر كتب التاريخ أن الخليفة أبا بكر عندما أراد أن يبعث والياً الى البحرين قال عثمان : ابعث رجلاً بعثه رسول الله إليهم فقد عرفهم وعرفوه ، وعرف بلادهم ، وكان المقصود العلاء بن الحضرمي ، فبعثه الصديق الى البحرين( ) .

أما على صعيد الأزمات الاقتصادية فكان لها عثمان ، إذ قحط المطر في عهد الصديق والأرض لا تندب والناس في شدة ، فتبرع بمائة راحلة من الطعام وصلت الى المدينة قادمة من الشام جعلها صدقة للمسلمين ، فهل يفتح الله تعالى آذان عُباد المال ومحتكري قوت العباد شحاً وجشعاً الى صوت هذه العظمة التي توقظ فيها بواعث الرحمة والاحسان بالفقراء والمساكين والأرامل واليتامى التي طحنتهم أزمة الحياة؟ ، فما أحوج المسلمين في هذه المرحلة الى النفحات العثمانية لمن تأسى به من ذوي المال( ) .

– عثمان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب :

كان عثمان بن عفان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب يسمى (الرديف) ، والرديف بسان العرب هو الذي يكون بعد الرجل ، فإن عثمان كان ذا مكانة وجاه عند الخليفة عمر ، وإذ أراد الناس أن يسألوا الخليفة عمر رموه بعثمان وعبد الرحمن بن عوف ( ) ، الى جانب ذلك فقد كان عثمان من ذوي الشورى للخليفة عمر بن الخطاب ، إذ كان بمقام الوزير إن صح التعبير فقد أشار عثمان على الخليفة عمر بفكرة الديوان ، إذ قال :

أرى مالاً كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ منهم ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر ، فأقر الخليفة عمر رأي عثمان وانتهى بم ذلك الى تدوين الدواوين( ) ، وكان ممن أيد رأي الخليفة عمر في عدم وتقسيم أرض الفتوح على الفاتحين وإبقائها فيئاً للمسلمين .

– روايته للحديث النبوي الشريف :

روى عثمان بن عفان عن رسول الله مائة وستة وأربعين حديثاً( ) ، وروى عنه أولاده عمر وأبان وسعيد وابن عمه مروان بن الحكم ، ومن الصحابة عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وأبي هريرة وغيرهم( ) .

– توليه الخلافة :

عندما طعن الخليفة عمر بن الخطاب وعلم أنه ميت لا محال اختار مجلساً للشورى من ستة أشخاص هم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله( ) ، وحدد لهم طريقة اختيار الخليفة من هؤلاء الستة الذين مات رسول الله وهو عنهم راضٍ ، وأمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويشاوروا وفيهم عبد الله بن عمر للاستشارة فقط وليس لديه من الأمر شيء ، وحدد صهيب الرومي أميراً للصلاة حتى يتولى أحدهم الخلافة ، فضلاً عن ذلك أمهلهم ثلاثة أيام فقط بعد موته ليتفقوا على خليفة ، ولا يأتي يوم رابعاً إلا وعليهم أمير( ) .

س: لماذا أمر الخلافة محصور في المدينة من دون الأمصار لغاية وفاة الخليفة عمر بن الخطاب :

كان الأمر لغاية سنة ٢٣هـ أي أمر الخلافة محصور في المدينة المنورة ، لأنها مجمع الصحابة ولاسيما السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، إذ استبقاهم الخليفة عمر بجانبه ولم يأذن لهم بالانسياح الى الاقاليم المفتوحة ، فما يتفقون عليه أهل المدينة يتبعهم اكني الأمصار الاسلامية الأخرى .

وبذلك شكل الخليفة عمر بن الخطاب أعلى هيئة سياسية بمثابة البرلمان في عصرنا الحاضر لاختيار رئيس للبلاد ، قد عرف أن هذا الأمر لم يظهر من الصحابة من يعترض عليه ، وهو بذلك يكون هذا التدبير أو هذه الطريقة من ضمن الاجماع الذي يعد من الأسس التي ترتكز عليها الأمة في تشريعها ، وإن كانت هذه الطريقة هي استحداث جديد طرأ على الأمة ونظامها السياسي الفتي إلا أنه لم يخرج من مبدأ الشورى ولا ننسى أن الهيئة العليا (البرلمان) لم يكن أحد ينافسهم في فضلهم ومنزلتهم بين المسلمين فهم تمام العشرة المبشرة بالجنة .

س: كيف تم انتخاب عثمان بن عفان خليفة للمسلمين :

بعد دفن الخليفة عمر بن الخطاب أسرع رهط الشورى الى الاجتماع لينتهوا الى أمرهم ويولوا عليهم أحدهم حتى وصل الأمر الى أن انقسم أهل الشورى الى فريقين الأولى عنها هم : الزبير بن العوامر ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، أما الفريق الآخر هم المرشحون ويضم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وقد عبد الرحمن بن عوف عرضاً مفاده على أحدنا أن ينسحب من الترشيح ويكون له الحق في اختيار الخليفة ، فسكت كلاً من علي وعثمان ، فقال عبد الرحمن بن عوف : افتجعلونه إليَّ والله عليَّ أن لا آلو عن افضلكما قالا : نعم( ) .

س: ما هي خطوات عبد الرحمن بن عوف التي سبقت اختيار الخليفة؟

بدأ عبد الرحمن بن عوف مشاوراته واتصالاته بين أهل الشورى ، وقال عبد الرحمن لعلي : إن لم أبايعك فأشر عليَّ فمن ترشح للخلافة؟ ، قال علي : عثمان بن عفان ، وذهب الى عثمان وقال له : نفس ما قاله لعلي ، فقال عثمان : اختار علي بن أبي طالب ، وأخذ ابن عوف يشاور كل من يلقاه في المدينة من كبار الصحابة وأشرافهم ومن أمراء الجند ، ومن يأتي للمدينة وشملت مشاوراته النساء في خدورهنَّ ، وقد أبدينَّ رأيهنَّ ، كما سمع من الصبيان

والعبيد في المدينة ، فمنهم من أشار الى عثمان وآخرين أشاروا الى علي ، وتعد هذه الخطوة بمثابة استفتاء في الوقت الحالي ، وبعد صلاة الصبح وهو اليوم الأخير من المهلة والأخير من شهر ذي الحجة سنة (٢٣هـ) جمع الناس عبد الرحمن بن عوف في المسجد النبوي فقال : أيها الناس إني سألتكم سراً وجهراً بأمانيكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد من هذين الرجلين أما علي وأما عثمان ، فقم إليَّ يا علي فقام فأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ ، فقال : اللهم : لا ، ولكن جهدي من ذلك وطاقتي ، فأرسل يده وقال : قم إليَّ يا عثمان ، فإخذ بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ ، قال : اللهم نعم ، فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان قائلاً : اللهم اسمع وأشهد ، اللهم اسمع وأشهد ، اللهم إي قد خلعت ما في رقبتي من ذلك وجعلته في رقبة عثمان ، فازدحم الناس يبايعون عثمان تحت المنبر وقد بايعه علي ( ) .

– توجيهات ورسائل الخليفة عثمان لولاته ولعامة الناس بعد تسلمه الخلافة :

س: ما ملامح سياسية الخليفة الجديد؟

جاءت ملامح العهد الجديد وبرنامجه السياسي والاجتماعي من خلال فحوى الرسائل التي بعث بها الخليفة عثمان لولاته والتي تدعو الى مراعاة مصالح الأمة ، وحذر الولاة من جمع الأموال بغير حق من صدقات وخراج وغيرها ، كما دعى الى مواصلة حروب التحرير والفتوحات على ما سار عليه عمر بن الخطاب من قبله( ) .

الى جانب ذلك وجه الخليفة عثمان كتاباً الى عامة الناس يدعوهم فيه الى اليقظة والحذر في التعامل مع المتغيرات التي بدأت تواجه مجتمعهم ومنها قائلاً : فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم( ) ، في إشارة الى كثرة الأموال والإقبال على جمعها وتأثيرها على بنية المجتمع الاسلامي .

– أعمال الخليفة عثمان بن عفان :

من سياسته الخارجية مواصلة ما بدأه سلفه من الخلفاء أبا بكر وعمر في حروب التحرير والفتوحات ، فضلاً عن ذلك حدثت بعض الثورات في المدن المفتوحة حين سمعوا بوفاة عمر بن الخطاب ، ومنها ما حدث في همذان وأذربيجان والري وجرجان وخراسان وكرمان ، وقد تمكن المسلمون من إخماد تلك الثورات وثبتوا أقدامهم في تلك المناطق ، كما أعادوا المسلمين فتح الاسكندرية سنة (٢٥هـ) بعد أن أغلوا عليها الروم البيزنطيين( ) ، ومن الفتوحات الجديد وكان أبرزها :

١. فتح أرمينيا :

إن تأمين حدود الأراضي الاسلامي لاسيما وإن غارات الامبراطورية البيزنطية مستمرة على البلاد المفتوحة ، كان يتطلب فتح أرمينيا والحاقها بالأقاليم الاسلامية ، وتم تعيين حبيب بن سلمة الفهري ليتولى فتح أرمينيا ، إذ قاد جيشاً قوامه ستة آلاف رجل ففاجأهم وتمكن من تحقيق الانتصار عليهم ، مما اضطرهم الى طلب الأمان ودفع الجزية ، وعلى الرغم من بعض المعارك هنا وهناك إلا أن المسلمين تمكنوا من إخضاع مدن أرمينيا الواحدة تلو الأخرى وتوقيع عهود الصلح مع المسلمين ، فضلاً عن ذلك فقد قام الخليفة عثمان بن عفان بتعيين حذيفة بن اليمان والياً لأرمينيا( ) .

– تشكيل الاسطول البحري الاسلامي وغزوه البحر:

س: لماذا عارض الخليفة عمر بن الخطاب في عهد البحر؟

كان معاوية بن أبي سفيان أمير الشام يلح على الخليفة عمر بن الخطاب في غزو البحر ويصف له قرب الروم من حمص ، فكتب الخليفة عمر الى عمرو بن العاص : صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه ، فكتب عمرو إليه : إني رأيت خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلب وإن تحرك أزاغ العقول يزاد فيه اليقين

قلة ، والشك كثرة ، وهم كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق ، فلما قرأ الخليفة عمر كتاب عمرو ، كتب الى معاوية : لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وتالله لمسلم أحب إليَّ مما حَوت الروم ، فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك( ) ، وقد اكتفى معاوية بعد هذا الجواب بتحصين الثغور البحرية وبنا القلاع والحصون الدفاعية فيها ، وأخذ يشجع الناس على الإقامة فيها ، وتعلم فنون القتال البحري ذوي الطبيعة الدفاعية( ) .

ولما تولى عثمان الخلافة عاد معاوية وطلب ما طلبه من عمر ، وجاء رد الخليفة عثمان عليه بالرفض للسبب نفسه ، ثم كتب إليه معاوية مرة أخرى يهون عليه ركوب البحر الى قبرص ، فكتب إليه الخليفة عثمان : فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا ، واشترط على معاوية كذلك لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه( ) .

وعلى هذا الأساس شرع معاوية بتكوين الأسطول من خلال إصلاح المراكب التي استولى عليها المسلمون من البيزنطيين ، وبناء سفن جديدة( ) ، وربما استعان معاوية بأهل البلاد المحررة في هذا المجال وذلك لخبرتهم الطويلة في صناعة السفن واستخدامها( ) .

– فتح قبرص :

كانت قبرص من مدن بيزنطة ، ويدين سكانها بالعقيدة النصرانية ، وبعد أخذ الموافقة من الخليفة كتب معاوية الى أهل السواحل بالاستعداد لغزو قبرص ، وخرج معاوية على رأس حملة وهي الأولى على الجزيرة سنة (٢٨هـ) ، وتألف الأسطول الاسلامي المشارك في الحملة من مائة وعشرين مركباً بقيادة عبد الله بن قيس ، وخرج معه جمع من الصحابة ومنهم أبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام والمقداد بن الأسود وغيرهم ، كما اصطحب معه معاوية زوجته فاختة بنت قرظة وولده( ) .

وعند وصول الأسطول الاسلامي الى قبرص أغار الجنود على نواحيها مما اضطر ملك قبرص الى طلب الصلح مقابل دفعه الفدية للمسلمين جزية سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار ونص الاتفاق أن يُعلم أهل الجزيرة بتحركات البيزنطيين المعادية لهم ، وأن يكون موقف الحياد لأهل قبرص من أي معركة مع الروم( ) .

غير أن أهل قبرص لم يفوا بالعهد ، إذ ساعدوا البيزنطيين في حربهم ضد المسلمين وأعطوهم بعض المراكب ، مما حمل معاوية على غزو الجزيرة للمرة الثانية سنة (٣١هـ) وفتحها عنوة وعمد الى تمصيرها واستقرار المسلمين فيها ، فبعث إليها اثنتي عشرة ألفاً وبنى بها المسجد( ) ، وقد استمرت الحملات البحرية الاسلامية على الجزر الساحلية للبحر المتوسط مثل جزيرة ارواد ورودوس ، وقد كانت السيطرة على هذه الجزر تجري على وفق حملات وليس حملة واحدة ، فضلاً عن نها جرت في أعوام وليس في عام واحد( ) .

– معركة ذات الصواري( ) :

بعد تزايد نفوذ المسلمين في البحر المتوسط والجزر الساحلية وتعاظم قوتهم البحرية أخذ الروم البيزنطيين الاستعدادات لضرب هذه القوة المتنامية ، مما حدى بالخليفة عثمان أن يوجه أمراً الى معاوية بن أبي سفيان الى إعداد أسطول ضخم من السفن الى جانبه تحشيد جيش بري وذلك لتسيير حملة بحرية برية لمهاجمة البيزنطيين المتربصين بالمسلمين ، وقد خرج معاوية من دمشق سنة (٣٤هـ) على رأس الحملة البرية ، في حين أبحرت القوة البحرية من ميناء طرابلس بقيادة بسر بن أبي أرطأة ، أذ انظمت الى الأسطول القادم من مصر بقيادة عبد الله بن أبي سرح واجتمع الاسطولان بساحل مدينة عكا ، وقد بلغ تعداد الأسطول الاسلامي مائتي سفينة( ) ، فضلاً عن اسطول الشام الذي يقدر بخمسمائة سفينة( ) ، فيما يقدر عدد سفن الروم بألف مركب( ) .

والتقى الاسطولان قرب شاطئ ليكيا في شهر محرم سنة (٣٤هـ) ، وقد أجرى المسلمون اتصالاً مع البيزنطيين قبل بد القتال ، وعرضوا عليهم أن يكون القتال على الساحل ، وإن شاؤوا فالبحر ، وأراد الروم القتال في الماء لثقتهم بقدرتهم القتالية في البحر( ) .

ونفذ الروم خطة جعلوا المسلمين يرمون السفن بالسهام والرماح حتى نفذت ذخيرتهم ، وبعد نفاذها ظن القائد البيزنطي أن المعركة سوف تحسم بمجرد هجوم واحد على سفن المسلمين ، إلا أن المسلمين غيروا خطتهم فربطوا سفنهم بعضها ببعض واصطفوا على ظهورها متسلحين بالسيوف والخناجر ، وقذفوا السفن البيزنطية بالخطاطيف والكلاليب وجذبوها إليهم ، وبذلك تحولت ظهور السفن الى ميادين قتال فحولوا بذلك المعركة البحرية الى معركة أشبه بالبرية ، مما أدى هذا الإجراء الى ارتباك القادة البيزنطيين وأيقنوا بأن الهزيمة ستحل بقواته وهو ما حدث ، وجرح قائد الأسطول البيزنطي الذي فر من المعركة( ) .

وتعد معركة ذات الصواري من المعارك الشرسة أذ كان القتل بين الطرفين والنصر حليف المسلمين ، وقد سميت هذه المعركة بذات الصواري لكثرة عدد صواري السفن التي اشتركت في المعركة ، وبهذه المعركة خسرت القوات البيزنطية فرصة استعادة مواقعهم في بلاد الشام ومصر ، إذ كان اعتمادهم على التفوق البحري( ) .

– فتوحات بلاد المغرب :

في سنة (٢٧هـ) كتب عبد الله بن أبي سرح الى الخليفة عثمان يستأذنه في تحرير بلاد المغرب العربي ، وهي ما تعرف اليوم (تونس ، الجزائر ، المغرب) ، إذ كانت تحت النفوذ البيزنطي( ) ، فخرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس جيش نحو (قرطاجة) ، وهي مركز تجمع الجيوش البيزنطية ، فلما علم القائد البيزنطي بذلك حشد جيشاً مؤلفاً من مائة وعشرين ألف مقاتل( ) .

واصطدم الطرفان من دون تحقيق أحدهما أي نصر حتى وصلت الإمدادات العسكرية الى المسلمين بقيادة عبد الله بن الزبير ، فكان النصر للمسلمين وقتل قائد الروم البيزنطي في المعركة (جرجيوس) ، وفر من نجا مدينته سبيلطة وبث جنوده في البلاد ، وعقد صلح مع زعماء البلاد من البربر وعاد الى مصر من دون أن يترك أثر ، إلا أن هذه الغزوة رغم انسحاب المسلمين من بلاد البربر ، فهي كانت مفيدة للمسلمين فعرفوا طبيعة المنطقة ومدى أهميتها( ) .

– استكمال فتح بلاد فارس ومقتل يزدجرد :

لقد تم فتح الجزء الأكبر من بلاد فارس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، واستكمل الخليفة عثمان بن عفان الفتوحات لما تبقى من بلاد فارس ، ولا ننسى أن عدد من المدن قد انتفظت ضد السلطة الاسلامية عند مقتل الخليفة عمر ، وكانت توجيهات الخليفة عثمان الى ولاة البصرة والكوفة وحثهم على فتح جميع بلاد فارس ، إذ تم في عهده فتح همدان والري وسابور وأرجان ودارابجراد وأذربيجان وأصبهان واصطخر وجرجان وخراسان وسجستان وطبرستان ، وقد استمرت هذه العمليات أكثر من خمس سنوات تقريباً ، وتكللت هذه الفتوحات بهروب (يزدجرد) أخر ملوك الامبراطورية الساسانية أمام مواجهة المسلمين ، ففي سنة (٣٠هـ) هرب يزدجرد الى كرمان ، ثم الى خراسان حتى قتل هناك سنة (٣١هـ)( ) . وبذلك انهارت الامبراطورية الساسانية وأصبحت جميع أراضيها ضمن أقاليم الدولة الاسلامية.

– الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين في عهد الخليفة عثمان :

شهدت فترة تولي الخليفة عمر بن الخطاب الخلافة نوعاً من التعقيدات المالية لاسيما العمال والأمراء ، فضلاً عن سياسة العطا على أساس التفضيل ، وحين تولى عثمان بن عفان أبقى على سياسة عمر في العطا ، إلا أنه سمح باقتناء الثروات وتشييد القصور وامتلاك المساحات الشاسعة من الأراضي الى جانب فتح في الانسياح الى

باقي الأمصار الاسلامية ، وبالتالي زادت الثروات واتسعت الموارد المالية مع أتساع حركة الفتوحات شرقاً وغرباً ، وازدادت اعطيات الجند بمقدار مائة درهم زيادة لكل منهم ، وأمر للمرابطين بمضاعفة اعطياتهم( ) .

ومن ضمن ساسته المالية أقدم عثمان بن عفان على توريث عطاء الجندي لورثته من بنات وزوجات ، وكان كثير الانفاق على أقاربه ومن ماله الخاص ، وهو ما احتج به الغوغاء يوم الدار .

– بعض نفقات بيت المال :

وقد سَنَ الخليفة عثمان بن عفان سُنة جديدة إذ أر بوضع الطعام في المسجد خلال شهر رمضان (وجبة إفطار وسحور) ويصرف على ذلك من بيت المال ، ويكون للمتعبدين والعاكفين في المسجد النبوي ، فضلاً عن ابن السبيل والمعتمرين( ) . وهذه السُنة أو التقليد موجود في مكة والمدينة الى يومنا هذا ، ومن نفقة الميسورين من المسلمين .

وقد خصص الخليفة عثمان مرتباً للمؤذنين من بيت المال ، وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء الى جانب ذلك ، ثم تعمير المساجد بصورة عامة والصرف على رحلات الحج الى بيت الله الحرام وكسوة الكعبة ، كما أن بيت المال قدم أمالاً لحفر الآبار ، وجعل من بيت المال فك الرقاب ومساعدة أبناء السبيل( ) .

– سياسة إقطاع الأراضي :

س: هل كانت عملية إقطاع الأراضي لأجل استصلاحها في عهد الخليفة عثمان سياسة ناجحة؟

إن عملية أو سياسة إقطاع الأراضي سارية في العهد النبوي وعهد الخليفة أبا بكر ، إلا أنها انحسرت بشكل كبير في عهد الخليفة الفاروق ، ولما تولى الخليفة عثمان الخلافة أتخذ من عملية إقطاع الأراضي لاسيما في البلاد المفتوحة سياسية مالية لرفد خزينة الدولة من جهة ، والخشية من ترك الأراضي المهجورة كي لا تبور من جهة أخرى ، ومن بين الأشخاص الذين اقطعوا عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وخباب بن الحارث وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وأبو موسى الأشعري وآخرين ، وكانت الأراضي في مناطق مختلفة من البلاد الاسلامية لاسيما في العراق( ) .

لقد أثبتت هذه السياسية في عهد الخليفة عثمان نجاحاً كبيراً ، اسهمت في زيادة واردات الدولة ، فعلى سبيل المثال كانت إيرادات الأراضي في عهد الخليفة عمر تصل الى تسعمائة ألف درهم ، في حين بلغت في عهد الخليفة عثمان خمسين ألف ألف درهم( ) .

وفي هذا السياق أتخذ الخليفة عثمان سنة (٣٠هـ) قراراً سمح بموجبه تبادل وبيع الأراضي بصورة شخصية لمن له نصيب في الأراضي المفتوحة ، فكان بعض الصحابة الذين شاركوا في المعارك الكبرى كان لهم نصيب من تلك الأراضي المفتوحة وقيمون في الحجاز ، فقد أجاز لهم ممن يرغب وله أراضي في الجزيرة بمقايضتها بنصيب أهل المدينة من الفي في أرض العراق والشام ، فضلاً عن ذلك سمح الخليفة عثمان ببيع الأسهم من الفتوح لمن يرغب في ذلك ، وبالتالي مكن البعض من بيع أو استبدال سهمه( ) .

– تأثير الأوضاع الاقتصادية على المجتمع الاسلامي :

كان للخليفة عثمان صفة تختلف عن سلفه أبي بكر وعمر اللذان امتازوا بالشدة ، إذ كان سهلاً ليناً ، ولقد اغتبط أغلب المسلمين بخلافة عثمان لما وجدوا فيه من لين وتيسير بعد شدة الخليفة عمر ، إذ سمح لكبار الصحابة بالخروج الى الاقاليم وامتلاك الضياع فيها ، وترك الأغنياء يدفعون زكاتهم كما شاءوا ، وأصبحت الأموال تتدفق على أهل الحجاز مما دفع العديد الى الركون لحياة البذخ والترف ، الأمر الذي كان يحذر منه الخليفة عمر دائماً ، وبدأ الناس يميلون نحو اللهو ، وذكرنا أن عدد غير قليل من أعلام قريش قد رحلوا واستقروا في الأمصار ، وأصبحت لهم قصور وأموال ، في المقابل ظهرت طبقة من المعدومين من أهالي تلك البلاد بسبب عدم تساوي العطاء

، فكانت هناك طبقة فقيرة وأخرى نقيضتها ، الأمر الذي أسهم في تأجيج بعض الانتقادات الحادة للسلطة الحاكمة من إمارة وخلافة ، والتي فيما بعد في تأجيج الرأي العام ضد الخليفة وعماله( ) .

وكان أبا ذر الغفاري يدعو ويستنكر كنز الأموال بيد الأغنياء حتى شكوه الأغنياء لمعاوية أمير الشام الذي بدوره رفع الشكوى الى الخليفة ، وهذه صورة داخل المجتمع الاسلامي في ذلك العهد ، إذ أصبح أغنيا وفقراء ، ويرجع سبب ظهور طبقات في المجتمع الاسلامي الى عدة نقاط منها :

١. لقد أوجدت سياسة التفضيل في العطاء منذ عهد الخليفة عمر تفاوت كبير في الدخل السنوي للفرد يصل الى عشرة أضعاف ، مما أوجد تذمر من قبل فئة الروادف وهم المتأخرين من المسلمين الذين ساهموا في حروب الفتوح .

٢. تكدس الأموال عند أصحاب العطاءات العالية جعل منهم تجاراً يملكون الأراضي ، أما الروادف من أبناء القبائل فقد كانوا ينفقون ما يحصلون عليه لسد حاجاتهم اليومية ، وقد ساء حالهم بعد فتور حركات الفتوح في نهاية عهد الخليفة عثمان .

٣. سياسة بعض ولاة الخليفة قد زادت من حدة التوتر بسبب استحواذ الأموال بيد القريشيون من دون غيرهم ، وبالتالي زادت انتقاداتهم ضد الولاة( ) .

ويشير ابن سعد قائلاً : لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة ، ست سنين الاولى كان الأحب الى قريش من عمر بن الخطاب لأنه كان شديداً عليهم ، أما الست السنوات الأخرى قد نقم الناس عليه بسبب سياسة بعض الولاة واستعمال أقاربه في إدارة بعض الأمصار الاسلامية الذين أساءوا للناس( ) .

وقال الحسن البصري ، وهو من التابعين وأدرك حياة الصحابة : أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلما يأتي على الناس يوم إلا هم يقتسمون فيه خيراً ، يقال لهم : يا معشر المسلمين أغدوا على اعطياتكم فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم : أغدوا على السمن والعسل ، والاعطيات جارية ، والأرزاق دائرة ، والعدو متقى وذات البين حسن ، والخير كثير ، وكان السيف مغمداً على أهل الاسلام فسلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولاً الى يوم الناس هذا ، وأيم الله إني لأراه سيفاً مسلولاً الى يوم القيامة( ) .

وبدأ تصرفات أبناء الأغنياء وأبناء السبايا تطفو الى السطح ، الأمر الذي أحدث بعض مظاهر اللهو في المدينة فما من الخليفة إلا أن يقيم إجراءات تعزيزية تجاه هؤلاء من أبناء الأغنياء الذين أظهروا نوعاً من حياة الترف وفساد الأخلاق ، ولا ننسى أن هذا التغيير في سلوك الناس كان في أطراف الدولة حتى وصل الى العاصمة (المدينة المنورة) ، وهو ما دفع الخليفة عثمان الى تذكير المسلمين في خطبته بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وزخرفتها ، فكانت لحياة البذخ والرخاء أثر في تحريك الفتنة التي حصلت( ) .

– التحولات في طبيعة المجتمع الاسلامي :

أما عن تركيبة المجتمع اسلامي فإن حركة الفتوحات ساهمت بتغيير بنسبة المجتمع من خلال الأجناس الداخلة تحت مظلة الأمة الاسلامية ثقافة ولغة وعادات وتقاليد وفنون عمرانية وإدارية وغيرها ، فأصبح سكان الأقاليم الاسلامية خليط من عرب وفرس ونصارى ويهود وترك ، وبذلك تشكلت طبيعة جديدة للمجتمع الاسلامي شكله هذا النشيج الغير متجانس ، وظهور لون جديد من الانحرافات وترويج الشائعات( ) .

– التقييم الاداري للمدن الاسلامية في عهد الخليفة عثمان :

قسمت إدارة الدولة الى عدة أقسام ، وكانت الاقسام الإدارية للدولة في عهد الخليفة عثمان على وفق التصنيف الآتي :

١. مكة المكرمة :

حين تسلم عثمان الخلافة كان عامل الخليفة عمر عليها خالد بن العاص بن هشام ، ثم عزل وعين مكانه علي بن ربيعة بن عبد العزى ، ثم تولى إمارة مكة عدد من الأمراء منهم عبد الله الحضرمي حتى استشهد الخليفة عثمان ، أبرز ما تميزت به مكة في عهد الخليفة عثمان الهدوء المستمر على الرغم ما حصل من فتنة في أمصار المسلمين( ) .

٢. المدينة المنورة :

تعد المدينة المنورة أهم المدن الاسلامية ، فهي عاصمة الدولة ، فضلاً عن ضمها شيوخ الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وفيها بين المال وديوان الاعطيات العام ، وتعد من أهدأ المدن حتى حصول الفتنة ومقتل الخليفة عثمان ، وكان عند سفره يولي عليها زيد بن ثابت ( ) .

٣. البحرين واليمامة :

البحرين كانت تشمل سابقاً جميع مناطق الخليج وبعض أجزاء السعودية من دون الكويت ، وبلاد اليمامة هي نجد ، تذكر بعض المصادر أن ولاية البحرين أصبحت في عهد الخليفة عمر تابعة لولاية البصرة ، وفي عهد الخليفة عثمان أصبح عامل البحرين أحد القادة التابعين لوالي البصرة( ) .

٤. اليمن :

كان عامل اليمن في عهد الخليفة عمر يعلي بن منبه ، وبقي عاملاً عليها حتى مقتل الخليفة عثمان ، وقد أشتهر عن أهل اليمن في عهد الخليفة عثمان طاعتهم وانقيادهم لولاته( ) .

٥. بلاد الشام :

كان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام ، وبعد تولي عثمان الخلافة أبقاه عليها ، ويعد من أقوى عمال الخليفة عثمان وأشدهم نفوذاً ، وقد ضمت حمص وفلسطين الى الشام ، وهي من الأقاليم المتاخمة لأراضي الروم ، وشهد بلاد الشام العديد من المعارك والفتوحات( ) .

٦. أرمينيا :

وهي أقرب المدن الى بلاد الشام ، وفتحت في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد ذكرت تفاصيل فتحها في موضوع سابق ، عُين عليها والياً حذيفة بن اليمان ، ثن عُزل وعُين بدلاً عنه المغيرة بن شعبة حتى مقتل الخليفة عثمان ( ) .

٧. ولاية مصر :

كان والي مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص الذي حكمها لمدة أربع سنوات ، وبعد مقتل الخليفة عمر بقى في عهد الخليفة عثمان حتى عُزل وعُين بدلاً عنه عبد الله بن أبي سرح( ) ، وقد أوعيد عمرو بن العاص الى منصبه ثم عُول مرة أخرى وكان في محله مرة أخرى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، إذ أصبح الوالي الرسمي على مصر وأجنادها ، وكانت ولاية مصر من الولايات التي ثارت فيها الفتنة ، فكان من مصر من شارك في يوم الدار( ) .

٨. ولاية البصرة :

تولى إمارة البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أبو موسى الأشعري ، وكانت البصرة وبسبب حروب التحرير والفتوحات من أكبر المعسكرات الاسلامية ، وللبصرة دوراً كبيراً وبارزاً في هذه الفتوحات ، وقد أبقى الخليفة عثمان أبو موسى الأشعري على البصر بوصية من الخليفة عمر ، وبذلك أذ أثبتت الأحداث قدرته العسكرية

والإداري في إدارة هذا الاقليم ، فقام بحفر الآبار والأنهار في عهد الخليفة عثمان ، فضلاً عن جلب مياه الشرب للبصرة حتى عُزل ليكون بدلاً عنه عبد الله بن عامر الذي أكمل المهمة ، وقد ضم الخليفة عثمان أجناد البحرين وعُمان الى البصرة ، بسبب الظروف الصعبة ومشاكل الجند فيها ، وأصبحت البصرة من المدن الاسلامية المستقرة ، وازدادت الهجرة إليها فأصبحت مركزاً إدارياً مرموقاً ، لذا نجد البصرة خلال عهد الخليفة عثمان كانت تدار من قبل رجلين أثبتا نجاحهما في مهمتهما الأول أبو موسى الأشعري ، والآخر عبد الله بن عامر( ) .

٩. ولاية الكوفة :

حين تولى عثمان الخلاف كان والي الكوفة المغيرة بن شعبة ، وعزله وولى مكانه سعد بن أبي وقاص على الصلاة والجند ، وعين عبد الله بن مسعود على بيت المال ، ثم عزل سعد بن ابي وقاص وعين مكانه الوليد بن عقبة وضم إليه بيت المال بعد أن كان مفصولاً عن الإمارة ، ثم حدثت مشاكل بين بعض أهل الكوفة والوليد بن عقبة انتهت بعزل الوليد وعُين سعيد بن العاص أميراً عليها سنة (٣٠هـ)( ) ، واستطاع سعيد بن العاص أن ينظم أمور الكوفة ويعين الولاة في مختلف الثغور التابعة للكوفة ، ويضبط أمورها ، فضلاً عن قيامه بغزوات ناجحة ، حتى بدأت بوادر الفتنة تظهر في سنة (٣٣هـ) ، واعترض بعض القوم على سعيد بن العاص كما اعترضوا من قبل على سعد بن ابي وقاص والوليد ، وطلبوا خلعه مهددين بالسلاح إن لم ينفذ أمرهم ، وقد أصدر الخليفة أمرً بتولية الإمارة أبي موسى الأشعري واستمر على الكوفة حتى مقتل الخليفة عثمان ( ) ، وأشتهر عن أهالي الكوفة تمردهم وتسلطهم على ولاتهم ، إذ شهدت خلافة عثمان تولي خمسة أمراء الكوفة ، وإن بعض أهل الكوفة كان لهم دور في أحداث فتنة مقتل الخليفة عثمان ( ) .

ومن خلال ما ذُكر من الأحداث نجد أن بعض الإمارات شهدت اضطرابات في عهد الخليفة عثمان لاسيما الكوفة ، إذ ولدت فيها فتنة ، وشارك من أهلها مع بعض أهل مصر والبصرة في مقتل الخليفة( ) .

– حال القضاء والقضاة :

بعد أن تطورت مؤسسة القضاء في خلافة عمر بن الخطاب ، إذ أسس لها قواعد ونظم ، فضلاً عن بعض السوابق في الحكم ، كل هذا قدم الخبرة الكافية لعثمان بن عفان للسير في تطوير هذه المؤسسة ، وعند مبايعته كان على قضاء المدينة الامام علي بن طالب وزيد بن ثابت والسائب بن يزيد ، وقد كان عثمان يحكم بنفسه في المدينة ويستشير الصحابة الثلاثة وآخرين ما يعني أنه قد أصبح القاضي الأول في المدينة ، وبقي على هذا الحال حتى قتل يوم الدار( ) ، وكان الخليفة يعين القضاة في الأقاليم أو يترك اختيار القاضي لأمير المصر ، وأحياناً يجمع للأمير القضاء( ) ، وقد جعل داراً للقضاء وبذلك يكون عثمان بن عفان أول من أتخذ داراً للقضاء في الاسلام ، إذ كان أبا بكر وعمر يقضيان في المسجد أبان خلافتهما( ) .

أما أشهر القضاة أيام الخليفة عثمان فهم : زيد بن ثابت في المدينة ، وأبو الدرداء في دمشق ، وأبو موشى الأشعري وشريح في الكوفة ، ويعلي بن أمية في اليمن ، وعثمان بن قيس في مصر( ).

– جمع الناس على قراءة واحدة للقرآن :

لقد كانت عملية جمع القرآن وكتابته في مصحف عل مراحل ، أولها في عهد النبي ، إذ أمر بكتابة الآيات القرآنية ، وكان هناك كتّاب للوحي أختلف في عددهم ومنهم الخلفاء الراشدين الأربعة ، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم ، وجاءت روايات وأحاديث عدة تشير الى كتابة القرآن في عهد الرسول ، ومنها قال البراء : لما نزلت الآية : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين ...) ، قال النبي : " أدعُ لي زيداً وليجيء باللوح والدواة ، أو الكتف والدواة " ، قال له النبي : أكتب لا يستوي ..."( ).

وإن القرآن كان مكتوباً في مكة وليس في المدينة فقط ، بدليل قصة إسلام عمر بن الخطاب ودخوله بيت أخته وفيه صحيفة فيها سورة طه ، إذن القرآن مكتوب في عهد النبي ، إلا أنه غير مجموع في موضوع واحد ، فكان يكتب على العسب واللحفاف والرقاع وجريد النخل ، والاكتاف ، فضلاً عن حفظه في صدور الرجال ، ثم جُمع في عهد الصديق ، وقد أوردنا تفاصيل ذلك وكيف ولماذا جمعه ، إن جمع القرآن وكتابته في صحف في عهد الصديق جاء لضرورات أهما المحافظة عليه من الضياع بعد أن كثر القتل في الصحابة من حفظته .

س: ما أوجه الاختلافات بين كتابة القرآن في العهد النبوي وعهد الصديق؟

إن القرآن الكريم كُتب في عهد النبي مفرقاً في الصحف والالواح والعسب (جريد النخل) ولم تكن كتابته على وفق تسلسل الآيات في السورة الواحدة ، بل متفرقة ، ما في عهد الصديق كُتب في صحف كل سورة في صحيفة مرتبة حسب الآيات( ) .

س: لماذا جمع عثمان القرآن الكريم على الرغم من جمعه في عهد الصديق ؟

لم يكن الدافع من جمع القرآن من قبل عثمان لترتيبه ، فقد كتبه من قبل أبا بكر الصديق ، وإنما كان لاختلاف قراءاته بين المسلمين التي أوشكت أن تخلق فتنة بين المسلمين ، إذ بعضهم يقول : قراءتي هي الصحيحة وهي خير من قراءتك ، والآخر يرد بالعبارة نفسها ، ما أفزع حذيفة بن اليمان والي أرمينيا لما شاهد ذلك الاختلاف في رعيته ، فأقدم فزعاً الى الخليفة عثمان وطلب منه أن يدرك الأمة قبل أن يتفاقم خطر الاختلاف وتحريف كلمات القرآن وآياته لاختلاف القراءة ، وقد جمع الخليفة عثمان أعلام الصحابة وأهل الشورى وشاورهم في الأمر ، وقدم رأيه على توحيد القراءة للقرآن الكريم فوافقه الصحابة ومن بينهم الامام علي بن أبي طالب ( ) .

فعن أنس بن مالك : أن حذيفة بن اليمان قال لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل الخليفة حفصة بنت عمر أن أرسلي بالصحف ، ننسخها ونردها إليك ، فأرسلت بها ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوها ، وقال للرهط القريشيين أذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فأكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذ نسخوا المصحف في المصاحف أرسل عثمان الى كل أفق بمصحف مما تسخوا ، وأمر بما سواه من الصحف أن تحرق( ) .

وقد اختلف في عدد المصاحف التي فرقها في الأمصار وبعض الأقوال تشير الى أنها أربعة ، الأول أبقاه في المدينة ، وأمر زيد بن ثابت أن يقرأه للناس في المدينة ، والثاني أُرسل الى الشام ومرشد قراءته المغيرة بن شهاب ، أما الثالث فكان في الكوفة وعليه أبو عبد الرحمن السلمي ، والرابع في البصرة ومن يرشد الناس عليه عامر بن قيس ، وقيل : الخامس في مكة ومرشده عبد الله بن السائب( ) .

اشعال الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة :

س: ما الأسس التي قامت عليها الفتنة في الأمصار الاسلامية وأدت الى مقتل الخليفة عثمان ؟

لم تكن حادثة مقتل الخليفة عثمان في ذي الحجة سنة (٣٥هـ) وليدة اللحظة بل سبقتها ظروف ومواقف شكلت في مجموعها أسس ودوافع ساهمت في اشعال الفتنة ومنها:

١. الرخاء والميول نحو ترف الحياة :

بسبب الفتوحات واتساعها لاسيما في النصف الأول من خلافة عثمان امتلأت أيدي الناس بالخيرات والرزق فكانت أول العهد للدخول في فتنة المال والميول الى حياة الترف والافساد ، وقد تنبه عثمان الى ذلك فكان يشير الى الناس في أحد خطبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وحكامها( ) .

وبهذا الطبع الجديد لأغلب الناس قد حرك ميولهم نحو ترف الحياة والركون الى القيل والقال ، وانجذابهم الى دعاة الفتنة وأفكارهم .

٢. تحولات في طبيعة النسيج الاجتماعي الاسلامي :

إن نتائج حركة الفتوحات دخول أجناس من غير العرب وأهل الجزيرة الى النسيج الاجتماعي وتحت مظلة الحكم الاسلام ، فكان منهم اليهود والنصارى والركود والاعراب والترك والفرس ، وبالتالي هذا الخليط غير المتجانس في الافكار والميول والثقافات قد دخل نوع من الأفكار الجديدة في هذا المجتمع لاسيما ان هذه الاجناس لم تكن أغلبها على ود الى الاسلام وأراء المسلمين باتجاه المعارضة للحكام .

٣. توقف الفتوحات وقلة العطاءات :

من المعلوم إن الفتوحات قد توقفت في نهاية عهد عثمان لاسباب طبيعية أو بشرية في جهة فارس أو الشام وأفريقيا ، وبذلك لم تعد الغنائم كما سبق ومنها بدأ الناس يخوضون في أمور السياسة والتشكيك في طبيعية الاراضي المفتوحة وملكيتها واعتبروا أن الاموال في بيت المال من حقهم وليس من حق أناس معدودين من قريش وأخذوا يروجون الشائعات من أن عثمان قد وزع الأراضي لمن شاء من الناس وبدأ بوادر النقمة على الولاة والخليفة بسبب نقص الأموال .

٤. الغوغاء من أهل الأمصار :

وهم مجموعة من الأشخاص الناقمين على السلطة بسبب عقوبات صدرت بحقهم كصداً أو تغرير لأمر ارتكبوه في الاقاليم الاسلامية ، وكانت العقوبة صدرت من الخليفة نفسه أو ولاته لاسيما في من صدرت في حقه من البصرة والكوفة ومصر ، وكان أغلبهم من الاعراب ووصفوا بأصحاب شر أو الغوغاء شكلوا بمجموعهم في هذه الأمصار طائفة شكلت خطراً حقيقياً على الدولة ، وكانوا أحد أذرع الفتنة( ) .

٥. نشاطات عبد الله بن سبأ :

وهو يهودي من أهل صنعاء وسمي أيضاً ابن السوداء ، فأمه من السود ، أسلم في عهد عثمان بن عفان ، وكان له نشاط ملحوظ في بعض الأمصار الاسلامية ، محاولاً إظلال الناس فبدأ بالحجاز ومنها الى البصرة ثم الكوفة ثم الشام ولم يستطع بث أفكاره الهدامة حتى استقر به الأمر في مصر ، وزعم أن محمد خاتم أحق بالرجيعة من عيسى بن مريم وقال أن علي خاتم الأوصياء وأن عثمان اغتصب الخلافة وأخذ أن يشيع أن عثمان قد جمع أموالاً بغير حق ، ودعا الناس على أن ينهضوا لهذا الأمر بدواعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أخ ينظم حملته ضد عثمان وولاته ، ويدعو الناس للتوجه الى المدينة المنورة واوهمهم ان الصحابة قد راسلوه من المدينة يدعون الناس للثورة على عثمان ( ) ، ولم يكن ابن سبأ لوحده بل كان الأمر يدار من شبكة من المتآمرين والمتعاونين معه لهذا الغرض( ) .

وقد شكك بعض الباحثين في عبد الله بن سبأ وقالوا : انه شخصية وهمية وأنكروا وجوده ، وأغلب المنكرين لهذه الطائفة هم من المستشرقين وبعض الباحثين العرب .

في حين نجد اتفاق المؤرخين والمحدثين وأصحاب الطبقات والانساب على وجود شخصية ابن سبأ ، فقد ذكره الشعبي (ت١٠٣هـ) ، والجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، وذكر ترجمته الذهبي (ت٧٤٨هـ) في كتابه ميزان الاعتدال ، ذكره ابن جر (ت٨٥٢هـ) ، وكتب الانساب أشارت الى ابن سبأ ومنهم السمعاني (ت٥٦٢هـ) في كتابه الانساب ، وجاء خبر ابن سبأ في زمن الامام علي بن ابي طالب في كتاب المقريزي الخطط ، اذن ان شخصية ابن سبأ حقيقية لا لبس فيها ، ذكرت في المصادر والمراجع التاريخية المتقدمة منها والمتأخرة ، فضلاً عن ذكرها في كتب بعض المستشرقين أمثل فلهاوزن وفولتن وغيرهم من الكتاب( ) .

٦. عمال عثمان من بني أمية لاسيما مروان بن الحكم :

من المعروف ان الحاشية أو القادة دائماً ما يرتكبون أخطاء جسيمة سواء كان لسوء الإدارة أو عدم العدالة أو الظلم للرعية وتأتي تلك الممارسات على رأس الحاكم العام أو خليفة المسلمين وعلى مر العصور يتكرر هذا الموقف .

فكان ما كان من ولاة عثمان وتحديداً من أقاربه بعض التصرفات التي استغلت من قبل الناقمين على السلطة ، فقد هيمنت بعض رجالات الأمويين على مقدرات الخلافة واستئثارهم بالنفوذ والسلطان مع غض النظر من قبل الخليفة أو حلمه تجاه هؤلاء القادة ، فمن قرارات الخليفة عزل سعد بن بي وقاص من ولاية الكوفة وعين بدلاً عنه شقيقه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي العيط وكان أحد الطلقاء( ) ، وقد شكوه أهل الكوفة الى الخليفة بأنه يشرب الخمر ، وقد جلده عثمان وعزله( ) ، وكان تعيين الخليفة الوليد بن عقبة بدلاً عن سعد بن أبي وقاس كان له أثر شيء ، وحقد بعض المسلمين على دور الأمويين عموماً في إدارة الأمور( ) .

وقد عين سنة (٣٠هـ) سعيد بن العاص بدلاً من الوليد بن عقبة ، وهو من أقارب عثمان ، وذكر أن سعيداً في مشجرة كلامية في مسجد الكوفة مع الأشتر النخعي عن أراضي الفتوحات ، قال سعيد : إنما السواد بستان لقريش( ) ، وهذا النقاش يعكس حالة المجتمع في الكوفة وحالة عدم الانسجام مع السلطة ، جعل البعض يشعر بتسلط القرشيين على حقوقهم ما أثار حفيظتهم ، وقام سعيد بإرسال كتاب الى الخليفة يشرح فيه حال المجتمع الكوفي ونقد بعض وجهائها ، فأصدر الخليفة قراراً بترحيل هذه المجموعة الى الشام( ) .

أما في البصرة ففي سنة (٣١هـ) عزل الخليفة والي البصرة أبا موسى الأشعري ، وعين بدلاً عنه عبد الله بن عامر وكان صغير السن إذ كان عمره خمسة وعشرين سنة ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، وقد وجهت للخليفة انتقادات لتعينه من صغار السن وقليل التجربة( ) ، وقد رد عثمان على هذا النقد : إن رسول الله استعمل اسامة بن زيد وهو أصغر سناً من ابن عامر( ) .

وفي هذا السياق عين الخليفة على مصر شقيقه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، والمعروف إن بن ابي سرح قد أرتد عن الاسلام في عهد النبي ، ثم عاد الى الاسلام وقد تشفع له عثمان عند النبي بعد بقتله فعفى عنه ، وكان عبد الله في سعد جاف المعاملة مع أهل مصر ، وزاد في قيمة الخراج عليهم ، فنقموا أهل مصر عليه ، فكان الانتقادات الى الخليفة إن استعمل رجلاً كان رسول الله قد أباح دمه( ).

وما يخص مروان بن الحكم ، وهو ابن عم عثمان كان له دور في تأجيج الرأي العام ضد عثمان بن عفان فقد انتقد الصحابة قبل غيرهم مكانة مروان بن الحكم عند عثمان وكان بمثاب المستشار الخاص له ، وكان لمروان موقف من الوفود القادمة الى المدين ، فبعد أن هدأ الخليفة من الموقف وامتص غضبهم خرج عليهم مروان بن الحكم ليزيد من التشنج الحاصل ، حيث قال : جئتكم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، أخرجوا منا أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمراً لا يسركم ارجعوا الى منازلكم فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا( ) ، وقد وجد القوم العائدون من أهل مصر كتاب بختم الخليفة يأمر عامله على مصر أن يعاقب قادة المجموعة ، وقد عاد القوم الى عثمان بالكتاب وحلف أنه لم يعلم به حتى أثارت الشكوك حول مروان بن الحكم أنه الكاتب أو صاحب ذلك القرار العثماني دون علم الخليفة الأمر الذي أدى الى احتقان الموقف والوصول الى التصادم( ) .

– الجولة الأخيرة مقتل الخليفة :

ذكرنا في موضوع سابق إن الناقمين على الخلافة في مصر والبصرة والكوفة ، قد نسقوا جهودهم وبلوروا أفكارهم واتخذوا القرار بالتوجه الى المدينة وخلع الخليفة أو قتله .

ولما كان شهر شوال سنة (٣٥هـ) خرج ما بين ستمائة الى ألف رجل من مصر بقيادة الغافقي بين حرب المكي وادعوا بأنهم يريدون العمرة( ) ، وخرجت الجماعة الثانية من الكوفة وعددها مائتي مقاتل بقيادة عمرو بن الأصم

والاشتر النخعي( ) ، أما المجموعة الثالثة فخرجت من البصرة وقد بلغ عدد أفرادها مائة وخمسين مقاتلاً بقيادة حرقوص بن زهير السعدي ، وعلى ما يبدو أن هدف الجماعات في هذه المرحلة لم يكن لقتل الخليفة بل لحمله على تعديل تعجه في الحكم ومحاسبة المسؤولين عن الأخطاء والتجاوزات . وقد قدموا الثأرين مجموعة مطالب منها اداعائهم ضد عثمان :

١. العمل بكتاب الله وسنة نبيه .
٢. لا يأخذ عطاء أهل المدينة من عطاء الأمصار .
٣. لا تجمر البعوث .
٤. رفع المظالم .
٥. خلع كل ولٍ لا ترضى عنه الأمصار( ) .

استجاب عثمان لهذه المطالب وتعامل بكل رفق ولين مع الثائرين خوفاً من إراقة الدماء واشترط عليه ألا يشقوا عصا المسلمين ولا يفارقوا الجامعة ، وانتهت المفاوضات بوعود قطعها الخليفة لهم بالتخلي عن الاجراءات التي طالب بها الثائرين بإلغائها أو تعديلها ، وكتب الى المسلمين وأهل الأمصار بذلك( ) .

وكان ممن أقيل من منصبه عبد الله بن سعيد بن أبي سرح ، وعين بدلاً عنه محمد بن أبي بكر الصديق وتوجه محمد بن أبي بكر ومعه أمر الخليفة وعدد من الصحابة ، فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ، إذ هم بغلام أسود على بعير يضبطه ويستعجله ، فاستوقفه أصحاب رسول الله وقالوا له : ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب؟ ، ولما قيل له غلام من أنت؟ تعلثم وأخذ يقول مرة : أنا غلام أمير المؤمنين ، ويقول أخرى : أنا غلام مروان ، ثم استخرجوا من امتعته كتاباً فجمع محمد بن أبي بكر من كان عنده من الأنصار والمهاجرين وغيرهم ثم فض الكتاب بمحضرهم فإذا هي : إذ أتاك محمد وفلان وفلان فأقتل في قتلهم وأبطل كتابه ، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي وأحبس من يحيء إليَّ يتظلم منك( ) .

فرجع هؤلاء الصحابة بالكتاب الى المدينة وجمعوا طائفة من أبرز رجال الصحابة واطلعوهم على الكتاب وقصة الغلام فلم يبقى أحد في المدينة إلا حنق على عثمان ، ودخل الامام علي وبعض الصحابة على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير ، فقال له علي : هذا الغلام غلامك؟ ، قال : نعم ، قال : والبعير بعيرك؟ ، قال : نعم ، قال : فأنت كتبت هذا الكتاب ، قال : لا وخلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا علم لي به ، فقال له علي : فالختم ختمك؟ ، قال : نعم ، قال : وكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟ ، فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام الى مصر قط( ) .

ثم نظروا في الخط فعلموا أنه خط مروان فسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبى وكان مروان عنده في الدار ، فخرج الجمع من عنده غضبان ، وعلموا أن عثمان لا يحلف كاذباً إلا أنهم غضبوا من عدم تسليم عثمان مروان لهم( ) .

وانتشر الخبر في المدينة ، وأقبل الناس فحاصروا عثمان ومنعوه الماء حتى تمكن الامام علي بن أبي طالب من ارساله ثلاث قرب ما وصلت إليه إلا يشق الأنفس ، وبلغ علياً إن في الناس من يريد قتل عثمان ، فقال للحسن والحسين (عليهما السلام) : إذهبا بسيفكما حتى تقما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه ، وفعل ذلك عدد من أصحاب النبي وتزاحم الغوغاء على باب عثمان يريدون الوصول إليه لقتله ، فيعدهم عن ذلك السبطان ومن معهم من بعض الصحابة وابناءهم مثل عبد الله بن الزبير ، وعندئذ تسوروا عليه الدار وسقطوا عليه من أعلى المنزل وأقبلوا عليه بسيوفهم حتى قتلوه ، وبلغ الخبر علياً ، فأقبل مغضباً وقال لأبنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب وزجر من واقف معهم( ) .

س: لماذا لم يوافق الخليفة الدفاع عنه من قبل الصحابة في المدينة؟

أرسل علياً الى عثمان فقال له : إن معي خمسمائة دراع فأذن لي فأمنعك من القوم ، فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك ، فقال : جزيت خيراً ما أحب أن يهرق دم بسببي( ) .

فضلاً عن ذلك لقد منع عثمان كل الذين أتوا للدفاع عنه وأمرهم أن يتفرقوا الى منازلهم وقال : من كانت لي طاعة عليه فليكف عن الدفاع عني( ) ، إذ منع الصحابة من القتال خشية إراقة الدماء ، وقد ذكر إن رسول الله قد بشره بالجنة على بلوى تصيبه إنه سيقتل مصطبراً بالحق ورفض التنازل عن الخلافة حتى لا تكون سنة كلما كرهوا أمير خلعوه قائلاً : فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله عز وجل وأكرمني به وخصني به على غيري( ) .

س: ما هو الفرق بين عملية اغتيال عمر ومقتل عثمان ؟

هناك ثمة اختلاف بين دوافع وأساليب الحادثين فلم يكن مقتل عمر كمقتل عثمان ، لأن عمر قتل على يد دخيلة على الاسلام وبتخطيط من خصوم الاسلام ، أما عثمان فقد قتل على يد مسلمين حركها وقادها المشاغبون من الاعراب وان كانوا مسلمين.

س: هل مقتل الخليفة عثمان هو عملية اغتيال أم إنها ثورة ضد الحاكم انتهت بمصرعه؟

البعض عند قراءة أحداث سنة (٣٥هـ) يرى إن ما جرى لعثمان كما يجري في عصرنا الحديث من ثورات مثل الثورة الانكليزي التي حصلت بين قوة العرش وأنصاره من النبلاء من جهة وقوة الأمة ، ومن جهة أخرى وكانت هناك حرب وهزيمة غلبت أحد القوتين وهي قوة الأمة ، والأمر نفسه في الثورة الفرنسية التي اطاحت بلويس السادس عشر .

إن مقتل عثمان لم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة ، بل إنها حادثة محلية ، أو حادثة اغتيال الرئيس فلم تدخل قوة الدولة في الصراع ، إذ رفض الخليفة الدفاع عنه كما رفض التنازل عن الخلافة ، وبهذا استسلم لهم فقتلوه ، وما كان لفريق ابن سبأ إلا أن ينفذ مخططه بسهولة .

والسؤال هل كان لقتلة عثمان أن يغتالوه لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الأمر من أمثال والي الشام معاوية بن أبي سفيان لو أنها هاجمت وحاصرت داره هل ستنتج العملية؟( ) ، استشهد عثمان يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجة سنة (٣٥هـ) عن عمر ناهز (٨٢هـ) وبذلك يكون عثمان قد حكم كخليفة أحد عشر سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً( ) .

فهذا موقف الامام علي تجاه عثمان ، وكيف أنه لم يتخلى عنه ، فنحن معاشر المسلمين يا من نقتدي بسيدنا الامام علي ، إذ كان حاله مع عثمان حتى اللحظة الأخيرة ، فمن باب أولى ونحن المحبين المتبعين أن يكون حبنا وغيرتنا لعثمان كما أبداه الحسن والحسين (عليهما السلام) حيثما وقفنا بباب عثمان يدفعان عنه آذى الحاقدين بأمر أبيهم رضي الله عنهم أجمعين .

الفصل الرابع

الخليفة علي بن ابي طالب

اسمه وألقابه :

كما قيل المعروف لا يعرف : هو علي بن ابي طالب وليد الكعبة ، ابن عم الرسول ، اول الفتيان اسلاماً ، الكرار ، حيدرة ، لا فتى الا علي ، الفدائي الاول ، يحبه الله ورسوله ، اخو رسول الله في المؤاخاة،زوج البتول ،ابو السبطين الحسن والحسين،ابا تراب،العالم الرباني،باب مدينة العلم،اسد الله الغالب،فارس المشارق والمغارب،صاحب راية خيبر،علي مني وانا من علي،بمنزلة هارون من موسى ،من كنت مولاه فعلي مولاه ، من اهل المباهلة والكساء،اقضاكم علي،من المبشرين بالجنة،مطلق الدنيا بالثلاث،امير المؤمنين،رابع الخلفاء الراشدين،لولا علي لهلك عمر ، كرم الله وجهه.

وكانت احب الكنى اليه ابا تراب اذ كناه بذلك ، اذ ان الرسول جاء بيت فاطمة (عليها السلام) فلم يجد علياً في البيت فقال : اين ابن عمك ؟ قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل عندي فجاء النبي ووجده مضطجعاً في المسجد واصابه تراب فجعل رسول الله يمسح عنه ويقول قم أبا تراب( ) .

ولادته :

ولد قبل البعثة بعشر سنين ، وانه ولد في جوف الكعبة( ) ، وكان اسمه حين ولادته (اسد) اذ سمته امه بذلك على اسم ابيها اسد ، وكان ابو طالب غائباً فلما عاد سماه علياً( ) .

اسرته :

والده ابو طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب ويكون ابو طالب عم النبي ولم يكن من اصحاب الاموال وكان يحب النبي حباً شديداً وهو الذي تولى تربية الرسول بعد وفاة عبد المطلب( ) .

وضل ابو طالب مدافعاً عن النبي حتى وفاته اذ وقف بجانب النبي واجار ابن اخيه اجارة مفتوحة حتى اصابتهم محاصرة اهالي مكة في شعب ابي طالب اذ استمرت المقاطعة ثلاث سنوات من قبل مكة بسبب موقف الهاشميين من دعم ابي طالب للرسول ، وقد مات ابا طالب في شوال من السنة العاشرة من البعثة وقد تجاوز الثمانين من عمره( ) . اما أمه فهي السيدة الفاضلة الصحابية فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمية( ) .

وقد اهتمت برعاية النبي حين تكفله زوجها ابو طالب ، فكانت له اماً بعد امه ترعى أموره إذ عاش النبي محمد سنوات في رعايتها واسلمت وهي من اصحاب السابقات الاوليات( ) .

وتوفيت في حياة النبي الذي دخل عليها فجلس عند رأسها فقال : رحمك الله يا أمي ، كنت أمي بعد أمي وقد البسها رسول الله قميصه وكفنها ببردته فوقه . وحفر عليه الصلاة والسلام بيده الشريفة لحدها فأضطجع فيه وادخلها اللحد ودعا لها وقال عنها النبي انها كانت احسن خلقاً الي صنعاً بعد ابي طالب( ) .

أخوته :

كان لأبي طالب أربعة ابناء هم (طالب) اكبر إخوته سناً وقيل كان من المشركين ايام بدر ولم تذكر الاخبار مصيره اذ لم يوجد بين القتلى والأسرى( ) . والابن الثاني (عقيل) يكنى ابا زيد اسلم عام الفتح ، شهد غزوة مؤتة وحنين مات في خلافة معاوية وعمره ست وستون سنة( ) . وجعفر الابن الثالث لأبي طالب ، وهو من السابقين في الاسلام ، وهاجر الى الحبشة فأسلم النجاشي على يديه ، استشهد بمؤتة في ارض الشام( ) .

ومن البنات كان لابي طالب بنتان ام هانيء قيل اسمها فاختة تزوجت هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي ، وروت ام هانيء عن النبي وعاشت بعد علي( ) . والبنت الاخرى هي جمانة ام عبد الله بن ابي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب سهم لها النبي في خيبر( ) .

اسلامه :

لقد تربى علي في بيت النبي ذلك الشرف الرفيع الذي لا يعلو عليه شرف ، اذ ان ابا طالب كان كثير العيال ، وقد اصاب مكة جدب ، فطلب النبي من عمه العباس ان يساعدا ابو طالب قائلاً : يا عباس ان اخاك ابا طالب كثير العيال وقد ترى ما اصاب الناس من هذه الازمة فانطلق بنا فلنخفف عنه عياله ، اخذ من بيته واحداً ، وتاخذ واحداً فنكفيهما عنه ، وبالفعل اخذ رسول الله علياً فضمه اليه واخذ العباس جعفراً فضمه اليه( ) .

وقد نشأ هذا الفتى في اشرف بيوت العرب الا وهو بيت رسول الله فاحسن تربيته ، وعندما بعث رسول الله عرض الاسلام على علي حتى اسلم وهو اول فتى دخل الاسلام( ) .

وقيل : اذ حضرت الصلاة خرج رسول الله الى شعاب مكة ، وخرج معه علي متخفياً من ابيه ابا طالب ومن جميع اعمامه وسائر قومه يصليان الصلوات فيها فاذا امسيا فمكثا كذلك ما شاء الله ان يمكثا( ) .

ازواج علي وابناءه :

تزوج الامام علي السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي في السنة الثانية للهجرة وانجبت له الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم الكبرى وتزوج بعد وفاتها علي خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة ، وولد له منها محمد بن الحنفية ،وتزوج ليلى بنت مسعود ولدت له عبيد الله وابو بكر ، وولد له من ام البنين بنت حزام بن خالد ،العباس الاكبر ،وعثمان ، وجعفر الاكبر ،وعبد الله وتزوج من اسماء بنت عميس الخشعمية وولدت له يحيى وعون ، وتزوج ايضاً من الصهباء ام حبيب بنت ربيعة بن يجبر وانجبت له عمر الاكبر ورقية ، وكان له محمد الاوسط من زوجته امامة بنت العاص بن الربيع( ) .

وتزوج من ام سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي وله منها ام الحسن ورملة الكبرى وكان له من امهات اولاد محمد الاصغر ، ام هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وفاطمة ، وخديجة ، وام الكرام ، وام سلمة ، وام جعفر ، وجمانة ، ونفيسة( ) .

واجباته قبل الهجرة :

وكان سيدنا علي في مكة قبل الهجرة له من الواجبات ذات البعد الاستخباراتي ، فهو كان يرصد ويراقب كل من يأتي من خارج مك باحثاً عن النبي ليدله عليه سراً ، وأخبرت المصادر التاريخية قصة إسلام الصحابي أبي ذر الغفاري إذ دخل مكة يبحث عن النبي بعد أن سمع به وبرسالته ، ولكنه كره أن يسأل الناس عنه حتى أدركه الليل في المسجد الحرام ، فنام وكان علي يراقبه ، وبعد ثلاث ليالٍ صار بين أبا ذر وعلي حواراً حتى أخبره علي إن محمد نبي وإن ما جاء به حق ، وقال لأبي ذر : فإذا أصبحت فاتبعني لتراه فإن رأيت شيئاً أخاف عليك منه ، قمت كأني أريق الماء فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل معي مدخلي ، ودخلا على رسول الله ، فعرض عليه النبي الاسلام فأسلم أبا ذر( ) . وكانت قريش تراقب النبي وكل من يأتيه( ) .

علي الفدائي الاول :

س: لماذا طلب سيدنا النبي ان ينام الامام علي مكانه ليلة هجرته ؟

أقام رسول الله في مكة بعد ان هاجر جميع المسلمين الى المدينة ولم يبقى الا علي بن ابي طالب وابي بكر بن ابي قحافة . وبعد ان ايقنت قريش ان المسلمين اصبحت لهم قوة خارج مكة وان لهم داراً اصابو منها منعة فحذروا خروج رسول الله الى اصحابه ، فاجتمعوا في دار الندوة وقرروا ان يقتلوه( ) .

فأتى جبريل رسول الله وقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه . فقال رسول الله لعلي : نم على فراشي وتسبح ببردي هذا الحضرمي الاخضر ، فنم فيه ، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم ،وكان رسول الله ينام في برده ذلك اذ نام( ) .

فخرج رسول الله دون ان يشعر به احد اذ وضع التراب على رؤوس المتربصين به في بابه وهم نيام فأتاهم ات ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالو : محمداً قال :خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم ثم ما ترك منكم رجلاً الا وقد وضع على راسه ترابا وانطلق لحاجته ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجيا ببرد رسول الله فيقولون : والله ان هذا لمحمد نائم عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى اصبحوا ، فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا( ) .

وقد اخبر الرسول علي بخروجه وطلب منه ان ينام مكانه في تلك الليلة والواجب الاخر الذي كلف به علي ان يتخلف بعده في مكة ، حتى يؤدي عن رسول الله الودائع، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ليس بمكة احداً عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وامانته ( ) .

وهنا ملمح يشير اليه الشيخ محمد سعيد البوطي فيقول : كان من التناقض العجيب الذي كان المشركون واقعين فيه ، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويرونه ساحراً او مخادعاً لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه امانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم واموالهم التي يخافون عليها الا عنده وهذا دليل على ان كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقهم ، وانما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به وخوفاً على زعاماتهم وطغيانهم من اتباعه( ) .

اما سبب نوم علي على فراش النبي وحركته داخل الدار لايهام مشركي قريش بعض الوقت انه مازال في الدار ، حتى يكون وصاحبه ابا بكر قد جاوزوا منطقة الخطر( ) .

وهذا الموقف يعد تضحية عالية ، اذ كان من المحتمل ان تهوى سيوف فتيان قريش على رأس علي ولكن علياً لم يبال بذلك فحسبه ان يسلم رسول الله ولو كلفه ذلك حياته ، ولم يكن اختيار النبي علياً لهذه المهمة الا لثقتة عالية واطمئنانه الى قدرات علي التي لا يحملها شخصاً مثله( ) .

ولما اصبح علي قام من فراشه فعرفه القوم وتأكدوا من نجاة رسول الله فقالوا لعلي : اين صاحبك ؟ قال : لا ادري ، او رقيباً كنت عليه ؟ امرتموه بالخروج فخرج وضاق القوم بتلك الاجابة الجريئة ، وغاضهم خروج النبي ولم يروه فأنتهروا علياً واخذوه الى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه( ) .

هجرته :

بعد ان شاع خبر خروج رسول الله من مكة ، انطلق علي في مكة يجوب شوارعها باحثاً عن اصحاب الودائع التي خلفه رسول الله من اجلها وقد ردها الى اصحابها ، وظل يرد الامانات حتى برئت منها ذمة رسول الله ، وبعد ثلاث ليال قضاهن في مكة تأهب للخروج والهجرة الى سيدنا محمد ( ) .

س: كيف كانت رحلته الى المدينة المنورة ؟

لقد لاقى من الشدة والتعب ما لاقاه في رحلته ،اذ كان في النهار لا يستطيع السير لشدة الحرارة ، فاذا جن عليه الليل سار حتى قدم المدينة ، وقد تفطرت قداه فضلاً عن ذلك لم تكن له راحلة يمتطيها اذ قطع الطريق على قدميه دون ان يكون رفيق يؤنسه( ) . وهكذا كانت هجرته ، تضحية وفداء وشجاعة اذ فاقت التصور .

المؤاخاة في المدينة المنورة :

ذكرت مصادر عدة ان هناك مؤاخاة في مكة قبل الهجرة بين المسلمين وقيل ان النبي اخا بينه وبين علي في مكة( ) ، وذكرت مصادر اخرى انه ل يكن مؤاخاة في مكة بل في المدينة المنورة بعد وصول المهاجرين اليها من

مسلمي مكة وان النبي □ اخا علياً في المدينة المنورة( ) ، وذكر ابن هشام في السيرة عن ابي اسحق قال : واخى رسول الله □ بين اصحابه من المهاجرين والانصار وقال : تأخوا في الله اخوين اخوين ، ث اخذ بيد علي بن ابي طالب ، فقال : هذا اخي( ) ، وياله من شرف عظيم ان يكون علي □ ربيب النبي □ في مكة واخاه في المدينة المنورة اذ تاخى كل مهاجري مع انصاري الا رسول الله □ كان اخاه علي في دار الهجرة.

جهاده □ في عهد الرسول □ :

اجمع المؤرخون وكتاب السيران علي □ شهد المشاهد كلها ع رسول الله □ الا تبوك واعطاه النبي □ اللواء في مواطن كثيرة( ) ، ونحن لا نذكر تلك الغزوات بتفاصيلها لانها معروفة من جهة وليس الموضع كافي لشرحها من جهة اخرى ، اذ نستعرض موقف علي ودوره من هذه المشاهد :

١.غزوة العشيرة :

وفيها غزا □ قريشاً واستعمل على المدينة ابا سلمة بن عبد الاسد ومكث جمادي الاخرى وقد شارك في هذه الغزوة علي بن ابي طالب □ ولم يكن فيها قتال( ) .

٢.غزوة بدر (٢هـ) :

كان علي بن ابي طالب □ من احد ابطال معركة بدر ،فيذكر علي معركة بدر وتفاصيلها ويشير الى القبض على احد المشركين قبل المعركة وهو موسى لعقبة بن ابي معيط وقد عرف الرسول □ من هذا المولى عدد القوم( ) ، وعن المبارزة التي سبقت المعركة وهي غالباً ما تكون في المعارك اذ تبدء قبل الالتحام بين الطرفين قال علي □ : خرج للمبارزة من المشركين عتبة واخوه شيبة وابنه الوليد فقالوا : من يبارز؟ فخرج فتيان من الانصار فقال عتبة : لا نريد هؤلاء ولكن يبارزنا من بني عمنا من بني عبد المطلب فقال رسول الله □ "قم يا علي ،وقم يا حمزة ،وقم يا عبيدة " وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب " ، فقتل الله عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وجرح عبيدة ، فقتلنا منهم سبعين واسرنا منهم سبعين( ) ، ويقول علي : بينما انا امتح من قلب بدر اذ جاءت ريح شديدة لم ار مثلها ثم ذهبت ثم جاءت ريح شديدة كالتي قبلها ، فكانت الريح الاولى جبريل نزل في الف من الملائكة وكانت الثانية ميكائيل نزل في الف من اللائكة ، وجاءت ريح ثالثة فيها اسرافيل في الف( ) . وكان لواء المشركين في بدر مع طلحة بن ابي طلحة فقتله علي □ ( ).

٣.معركة احد (٣هـ) :

كما هو معلوم تبدء المعارك في غالبيتها بالمبارزة الفردية وقد بدءها فارس المشارق والمغارب علي □ مع طلحة بن عثمان الذي كان يحمل لواء المشركين فقال له علي □ : والذي نفسي بيده لا افارقك حتى يجعلك الله بسيفي الى النار ، او يجعلني بسيفك الى الجنة ، فضربه علي فقطع رجله فوقع على الارض فانكشفت عورته فقال : يا ابن عمي انشدك الله والرحم ؟ فرجع عنه ولم يجهز عليه ، فكبر رسول الله □ وقال لعلي بعض اصحابه : افلا اجهزت عليه ؟ قال : ان ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحيت منه ، وكان علي (رض)بعد الالتحام اخذ الراية بعد استشهاد مصعب بن عمير (رض) ( ) .

٤.معركة الخندق (٥هـ) :

عندما اخذ المشركون مكانهم مقابل الخندق ، ووقف احد اكبر فرسان المشركين الذي كان مهاباً في المعارك ويحسب له الف حساب وهو عمرو بن ود ، وقال : من يبارز فبرز له علي بن ابي طالب (رض) فقال له : يا عمرو ، انك كنت قد عاهدت الله الا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا اخذتها منه ، قال له : اجل ، قال له علي

: فاني ادعوك الى الله والى رسوله ، والى الاسلام ، ال : لا حاجة لي بذلك ، قال : فاني ادعوك الى النزال ، فقال له : لم يا ابن اخي ؟ فوالله ما احب ان اقتلك ، قال له علي : لكني والله احب ان اقتلك ، فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه ، فعقره وضرب وجهه ، ثم اقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا فقتله علي (رض) وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربة( ) ، وقيل عندما دعا المسلمين للمبارزة (رض) قال علي ابيات من الشعر جاء فيها :

لا تعجلن فقد اتاك ... مجيب صوتك غير عاجز

في نية وبصيرة ... والصدق منجنى كل فائز

اني لارجو ان اقيم ... عليك نائمـة الجنائز

في خربة نجلاء يبقى ... ذكرها عند الهزائز

وبعد مقتل عمرو بن عبد ود بعث المشركون الى رسول الله (ص)يشترون جثته بعشرة الاف فقال : رسول الله (ص):ادفعوا اليم جيفتهم ، فانه خبيث الجيفة ، خبيث الدية ، فلم يقبل منهم شيئاً( ) .

٥.غزوة بني قريظة (٥هـ) :

بني قريظة هم من يهود المدينة وقد نقظوا العهد مع رسول الله (ص) وتامروا على المسلمين مع مشركي العرب ، فبعد انسحاب جيوش الخندق ، امر رسول الله المسلمين بالتوجه الى بني قريظة( ) ، اما عن علي (رض) في هذه الغزوة ، فكان حامل راية المسلمين ، وانه (رض) صاح وهم محاصروا بني قريظة : يا كتيمة الايمان ، وتقدم هو والزبير بن العوام (رض) ، وقال والله لاذقن ما ذاق حمزة ، او لاقتحمن حصونهم ، فقالوا يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ( ) .

٦.غزوة خيبر)٧هـ) :

س: ما هو الوسام الذي منحه رسول الله (ص)الى علي يوم خيبر ؟

لقد كانت خيبر عبارة عن مجموعة حصون لليهود وقاعدة حربية لهم وهي تقع الى الشمال الشرقي من المدينة على بعد سبعين ميلاً منها فاراد الرسول (ص) ان يأمن مكرهم ويستريح من شرهم اذ توجه بجيشه الى خيبر وكانوا الفاً واربعمائة وبدء يفتحها حصناً حصناً ، واستعصى حصن القموص على المسلمين وكان علي (رض) في حينها رمداً .وفي ذلك المشهد قال رسول الله (ص)" لاعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ،يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله "فبات الناس ليلتهم ايهم يعطاها ؟ فلما اصبح الناس ،غدوا على رسول الله (ص)كلهم يرجون ذلك ، فقال: (ص): اين علي بن ابي طالب ؟ فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : فأرسلوا اليه ، فأتي به فوضع من رقه الشريف في عين علي ،ودعا له فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال علي : يا رسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ،فوالله لان يهدي الله بك رجلاً واحداًخيرُ لك من ان يكون لك حمر النعم( ) ، وقد خرج له مرحب زعيم يهود خيبر ، فانشد علي (رض) بعض الابيات وفيها :

انا الذي سمتني امي حيدرة ... كليث غابات كريه المنظرة

اوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله ثم كان الفتح على يده( ) ، وبهذا الموقف قد نال علي بن ابي طالب (رض) شرف ما بعده شرف اذ قال : رسول الله (ص) (يحبه الله ورسوله) فضلاً عن دعاء النبي له وشفائه من مرضه فلم يعود ذلك الوجع اليه بعد( ).

٧.غزوة حنين(٨هـ) :

من اعماله الجهادية (رض) والتي تتسم بالشجاعة وتدل على خبرة في القتال وفنونه ما كان في غزوة حنين ، اذ ثبت مع الرسول (ص) مع من ثبت ، وكان في جيش هوزان رجل على جمل احمر بيده راية سوداء ، اذ ادرك طعن برمحه ، واذ فاته الناس رفع رمحه لما وراءه فأتبعوه ، فأدرك علي (رض) عبقرية هذا الرجل الحربية وان له عامل مؤثر في حماس هوزان وشدتها فأتجه علي ورجل من الانصار نحوه ، واستطاعا اسقاطه من على جمله وقتله ، فما كانت الا ساعة حتى انهزموا وولوا الادبار وانتصر المسلون( ) .

دوره في هدم اصنام المشركين :

بعث رسول الله (ص) السرايا لهدم الاصنام في جزيرة العرب بعد ان طهر بيت الله الحرام منها فكانت سرية علي بن ابي طالب ارسله رسول الله (ص)بها الى بلاد طيء ، وهي ارض حاتم الطائي (الفلس) وهو صنم طيء وكان واجبه (رض) هدم (الفلس)، وكانت السرية مكونة من مئة وخمسين رجلاًفشنوا الغارة مع الفجر فهدموا الفلس وخربوه وجمعوا الغنائم والسبايا وكانت بنت حاتم الطائي احداهن فأطلقها رسول الله (ص) تكريماً لابيها حاتم الطائي( ) .

– الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى :

كانت مناسبة هذا الحديث غزوة تبوك في سنة (٩هـ)، فعندما خرج رسول الله (ص)الى تبوك استعمل على المدينة علي بن ابي طالب (رض) ، فوجد المنافقون في المدينة فرصتهم في بث نفاقهم وسمومهم فأخذوا يتكلمون في علي فمن ذلك قولهم :. ما تركه الا لثقله عليه ، وبعد ذلك خرج علياً ملتحقاً بالجيش واراد الغزو معهم قائلاً :. يا رسول الله اتخلفني في الصبيان والنساء ، فقال رسول الله (ص):. الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، غير انه لا نبي بعدي( ) .

تغسيله لرسول الله (ص) :

لما توفي رسول الله (ص) ، كان علي (رض) ممن غسله ، وقال علي غسلت رسول الله (ص)، فذهبت انظر ما يكون من الميت فلم ار شيئاً ، وكان طيباً حياً وميتاً ، وكان علي (رض) ممن نزل في قبر رسول الله (ص) وباشروا في دفنه هو والفضل بن العباس ، وقثم بن عباس وشقران مولى رسول الله (ص) ( ).

علي (رض) في عهد الخلفاء الراشدين :

اولاً . في عهد ابا بكر :

ذكرنا في الفصل الاول والخاص بسيرة ابا بكر الصديق ان علياً (رض) قد بايع ابا بكر بالخلافة وكيف كانت العلاقة الحميمة وحرص الامام علي (ع) على حياة الصديق اذ كان ناصحاً له بعدم السير بنفسه في حروب الردة خشيةً على حياته وعلى المسلمين اذا اصيب خليفتهم بسوء ما يدل على المحبة والتعاون ، وكان سانداً له في حروب الردة ومستشاراً له لا يفارقه ابداً .

ثانياً . في عهد عمر بن الخطاب :

لقد كان علي (رض)المستشار الاول لعمر بن الخطاب (رض) اذ قال عمر : اقضانا علي . وقال ايضاً : اعوذ بالله من معضلة ليس لها ابا الحسن( ) ، وقد ذكر في كتب التاريخ العديد من الامور القضائية التي اقضا فيها علي بعد ان استعصت على الصحابة ومنها ما قضي بها حكماً في غير محله .

اما في الجوانب المالية : كان لعلي رأي في خلافة عمر اخذ بها الخليفة عمر منها في تخصيص شيء من بيت المال للخليفة ،وعن اراضي السواد التي فتحت عنوة اشار علي على عمر الا تقسم الاراضي على الفاتحين وتكون خاصة ببيت المال .

وفي الجانب الاداري : فعندما اراد عمر ان يضع تاريخاً للمسلمين لتنظيم امور الدولة وضبطها ، جمع الناس وسألهم من اي يوم نكتب التاريخ ؟ فقال علي (رض) : من يوم هاجر رسول الله (ص)، وهو ما اقره عمر( ) .

الى جانب ذلك فقد استخلف عمر علياً على المدينة عدة مرات ولاسيما عند نزول عمر في الجابية وحين حج عمر بالناس سنة (٢٣هـ) ( ).

– زواج عمر بن الخطاب من ام كلثوم بنت علي :

س: ما سبب مصاهرة عمر بن الخطاب لعلي بن ابي طالب ؟

خطب عمر بن الخطاب ام كلثوم ابنة علي وفاطمة (رضوان الله عليهم) وقال في ذلك : فوالله ما على الارض يرصد من حسن صحبتها ما ارصد ، فقال علي : قد فعلت ، فأقبل عمر الى المهاجرين ، وهو مسرور ، وذكر سبب زواجه من ام كلثوم قائلاً : سمعت من رسول الله (ص) يقول : " كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا ما كان من سببي ونسبي " . فأحببت ان يكون بيني وبين رسول الله(ص) سبب( ) .

وقد ولدت ام كلثوم بنت علي ابنة سميت (رقية) وولداً سمته (زيداً) وقد مات زيد في حادث وحزنت امه لموته ووقعت مغشيةً عليها من الحزن فماتت من ساعتها ، ودفنت ام كلثوم وولدها زيد بن عمر في وقت واحد( ) .

ثالثاً. علي (رض) في عهد عثمان :

كان علي احد الستة المرشحين من قبل عمر للخلافة ، حتى تم الاختيار لعثمان ليكون الخليفة وهو احد الستة وكان علي من اوئل المبايعين لعثمان في المسجد النبوي . وكان علي ممن ايدوا قرار الخليفة عثمان بجمع القرأن على مصحفاً واحداً وكان علي ينهي من يعيب على عثمان جمعه للقرأن قائلاً والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل او في رواية اخرى لصنعت مثل الذي صنع( ) .

واما موقف علي في الفتنة التي ادت الى قتل عثمان فكان له دوراً كبيراً في الذود عن عثمان والدفاع عنه ، فعندما نزل المتمردون في ذي المروة قبل قتلهم لعثمان ارسل اليهم عثمان علياً اذ التقى بهم اقنعهم بالرجوع الى ديارهم راضين( ) ، وبعد عودة المتمردين الى المدينة وحصار عثمان ، كان علي من المدافعين عن عثمان ، فأرسل الحسن والحسين أبناءه لحراسة دار عثمان حتى لا يصل اليه عدو( ) ، ودعا الخليفة الى حمايته من خلال مئات من الرجال ، الا ان الخليفة رفض ذلك قائلاً :. ما أحب ان يهرق دماً بسببي وارسل اليه الماء بعد ان منع منه( ) ، وهكذا نجد علياً ناصحاً ومدافعاً لعثمان على مدى خلافته .

توليه الخلافة سنة ٣٥هـ :

بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان (رض) على ايدي الخارجين عليه يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ( ) ، فقام كل من بقي بالمدينة من اصحاب رسول الله (ص) لدعوته بتولي الخلافة وخاطبوه قائلين :" ان هذا الرجل قد قتل ، ولابد للناس من امام ، ولا نجد اليوم احداً احق بهذا الامر منك ، لا قدم سابقة ، وقرب من رسول الله (ص) ( ) ، الى جانب ذلك ان الثائرين على عثمان كانوا يشكلون عامل ضغط وقد تراجعوا عن التدخل في هذه العملية معترفين بأن اهل المدينة وحدهم هم الذين كانوا يمنحون الشرعية ونجحوا في طي خلافاتهم من مشكلة المرشحين( ) ، بقولهم : " انتم اهل الشورى ، وانتم تعقدون الامامة وأمركم عابر على الامة ، فأنظروا رجلاً تنتخبونه ، ونحن لكم تبع "( ).

س: ما موقف علي من ترشيحه للخلافة ؟

لم يكن علياً راغباً في الخلافة وسط هذه الاجواء الصعبة ، اذ خاطب الذين رشحوه قائلاً : " لا تفعلوا فأني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً "( ) ، لكن الواقع فرض امره على علي (رض) اذ لا يمكن ان يكون منصب الخلافة شاغراً والمسلمين بلا راع، والقلق من انهيار كل شيء ولابد من تنصيب خليفة ودفع الفتنة عن الناس فوافق كرهاً خشيةً على الدين والمسلمين واعادة جمع الامة بعد تفرقها ، واشترط علي (رض) على اهل المدينة ان تتم بيعتهم له عن عملية شورى يشترك فيها الصحابة من اهل الحل والعقد وعامة الناس وان تكون في المسجد ، وبذلك تتم البيعة في المسجد في يوم الجمعة الموافق ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥هـ بعد سبعة ايام من مقتل عثمان( ) .

– خطبته الاولى بعد توليه الخلافة :

دعا الخليفة علي (رض) في اول خطبة له بعد بيعته بالخلافة المسلمين الى التمسك بشرائع الله والتمسك بالثوابت من حلال وحرام وفرائض وتذكير المسلمين بحرمة المسلمين (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق) ويذكرهم بالاخرة وكلاً مسؤولاً عن اعماله (ولا تعصوا الله ، واذ رأيتم الخير فخذوا به وأذ رأيتم الشر فدعوه)( ) .

لقد كان الخليفة حريصاً على قيادة الدولة وفق المبادىء والمثل التي فهمها من رسالة الاسلام والتي جاهد من اجلها ، ولكن الظروف العاصفة التي تولى فيها الخلافة لم تكن مواتية ولا مساعدة له على تحقيق اهدافه وذلك لان منصب الخلافة قد فقد كثيراً من هيبته ومكانته المعنوية بعد ان تجرأ بعض اهل الامصار على قتل الخليفة في عقر داره ، كما فقد اهل المدينة من المهاجرين والانصار امتيازاتهم في ادارة الدولة واختيار الخليفة بحكم مالهم من صحبة للرسول (ص) وجهاد في سبيل الاسلام ، فجاء اهل الامصار بحكم ما لديهم من قوة لمشاركتهم في هذا الامتياز وفرض ارائهم واهوائهم المتضاربة في بعض الاحيان عليهم( ) .

وقد عبر علي (رض) عن المأزق حينما دخل عليه طلحة والزبير في عدة من الصحابة ليطالبوه بمعاقبة قتلة عثمان (رض) ، فقال لهم : يا اخوتاه ، اني لست اجهل ما تعلمون ولكني كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ ، وطالبهم الانتظار الى ان تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتوخذ الحقوق ، وقال : فاهدأ واعني وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا( ) .

– التحقيق في معرفة قتلة عثمان :

س: ماهي مساعي علي (رض) في معرفة القتلة ؟

لقد حاول الخليفة علي (رض) التعرف على قتلة عثمان على امل معاقبتهم حينما تسنح الفرصة ولكنه لم يصل الى نتيجة واضحة ، اذ ذهب علي (رض) الى نائلة زوجة عثمان ، وقال لها :. من قتل عثمان ؟ قالت :. لا ادري ، دخل عليه رجال لا اعرفهم( ) ، وبذلك فأن التحقيق في مقتل عثمان (رض) لم يكن بالسهل ، اذ ان القتلة لم يكونوا معروفين على وجه التحديد ، وكانوابمجملهم مندمجين في مجموع الخارجين على الخليفة من اهل الامصار ، وقد كانوا متضامنين في موقفهم في مسؤليتهم عن مقتل عثمان (رض) ومن ثم فقد كان التحرك نحو معاقبة قتلة عثمان يعني التحرك بأتجاه مقاتلة الخارجين على عثمان (رض) جميعاًسواء منهم المسيطرون على المدينة ام الموجودون في الامصار من ابناء قبائلهم ومناصرتهم( ) .

س: ما قرار الخليفة علي (رض) في مسألة الاقتصاص من قتلة عثمان ؟

بعد سماع الخليفة لمجموعة اراء قدمها الصحابة في هذا الشأن منها لاجبار الثائرين الخروج من المدينة بالقوة والاقتصاص منهم وجد الخليفة انها ستؤدي الى حرب اهلية لا سيما كانت بعض الاراء تقضي بجلب قوة من خارج المدينة لاخراج هؤلاء بالقوة ، في نهاية المطاف وجد الخليفة علي (رض) بعد تأمل الاحداث وما جرى ان يؤجل

السعي في معاقبة قتلة عثمان وسط هذه الاجواء ووجد انتعالج الامور بالروية والتسكين حتى تتوافر الظروف الملائمة لاتخاذ الاجراء المناسب( ) .

الاصلاحات الادارية في عهده :

س: ما الاصلاحات التي اقدم عليها الخليفة علي بن ابي طالب في بداية عهده :

١. تغيير ولاة الامصار :

كان التغيير الاكثر الحاحاً من وجهة نظر علي (رض) هو اعادة النظر في الجهاز الاداري المسؤول عن ادارة الدولة في امصارها ، والمتمثل بالعمال والموظفين ، لا سيما ان خلع عمال عثمان (رض) كان المطلب الرئيسي للثائرين من القبائل في الكوفة والبصرة ومصر ، لذا حدد الامر بعزل ولاة عثمان واستبدالهم بفئة جديدة ، فبعث قثم بن العباس والياً على مكة ، وعثمان بن ضيف والياً على البصرة ، وعمارة بن شهاب والياً على الكوفة ، وعبيد الله بن العباس والياً على اليمن ، وقيساً بن سعد والياً على مصر ، وسهلاً بن ضيف والياً على الشام( ) .

ولم يولي احداً ممن خرج على عثمان ، ولكن لم يتمكن جميع الولاة الجدد تولي مسؤوليتهم والالتحاق بمركز عملهم بسبب معترضة بعض الامصار استبدال ولاتهم القدامى بالولاة الجدد ، فعارض اهل اهل الكوفة استبدال عمارة بن شهاب بواليهم ابي موسى الاشعري ، اذ قال القعقاع حين قابل الوالي الجديد (ارجع فأن القوم لا يردون بأميرهم بدلاً ، وان ابيت ضربت عنقك) ( ).

فعاد الى الخليفة بالخبر ، اما سهل بن ضيف الذي عين على الشام فأنه ما كاد يصل الى تبوك حتى لقيه بعض رجال معاوية فقالوا له : من انت ، قال : امير ، قالوا : على اي شيء ؟ قال على الشام ، قالوا: ان كان عثمان بعثك فحيلاً بك ، وان كان بعثك غيره فأرجع ، قال : اوقد سمعتمتم بالذي كان ؟ قالوا : بلى ،فرجع الى علي( ) .

اما عثمان بن ضيف الذي عين على البصرة فأنه تمكن من دخولها لان عاملها السابق لم يشأ المقاومة ، الا ان اهلها كانوا منقسمين تجاه العهد الجديد " وافترق الناس بها ،فأتبعت فرقة القوم – اي المعارضون لعليَ (رض) – ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت : ننظر ما يصنع اهل المدينة فنصنع كما صنعوا "( ) ، بالمقابل تمكن قيس بن سعد من دخول مصر ، لكنه وجد اهلها منقسمين على انفسهم الى ثلاث فرق " فرقة دخلت بين مؤيد ومعارض ومعتزل للاحداث وما ترتب عليها "( ) ، وكذلك تمكن عبيد الله بن عباس الذي ارسل الى اليمن في تولي عمله هناك لان عاملها السابق يعلي بن امية جمع كل شيء من بيت المال وخرج منها( ) . في حين لم يقدم الخليفة علي (رض) على عزل والي مكة من قبل عثمان (رض) عبد الله بن عامر الحضرمي .

٢. اعادة بعض اراضي الصوافي الى بيت المال :

كان الخليفة عثمان (رض) قد اقطع بعض الاراضي المملوكة للدولة اقطعها بعض الاشخاص ، الامر الذي اثار حفيظة بعض الناس( ) . وقد شملت الاجراءات الجديدة من قبل الخليفة على (رض) اعادة بعض الاراضي التي تصرف بها الخليفة الى بيت مال المسلمين وقد اثارت هذه الخطوة بعض المنتفعين من هذه الاراضي الا ان علي اصر على عدالة خطوته هذه وتمسك بها( ) .

٣. تغيير سياسة العطاء :

لقد شرع الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بسياسة جديدة لتوزيع العطاء على الجند وكانت تقوم على اساس التفضيل فكان يرى من غير الانصاف توزيع العطاء على من قاتل الى جانب الرسول وبين من قاتل رسول الله (ص) او من حارب ضد المسلمين في حروب الردة مع من كان الى جانب المسلمين وهذا العطاء كان يعد عودة من عاد من المرتدين الى قانون الادارة المركزية لدولة الاسلام وقد سار عثمان على نفس السياسة وهذه السياسة قد ولدت بعض السلبيات ما دعا العديد من ابناء القبائل في البلاد المفتوحة الى المطالبة بتبديل هذه السياسة وكان علي (رض) يرى

ان توزع العطاء على اساس المساواة بين الناس هو الاعدل والاكثر انسجاماً مع سياسة رسول الله (ص) ، لذا فقد اعلن عن تخليه عن سياسة العطاء على اساس التفضيل وان اول تطبيق لهذه السياسة من قبل الخليفة كان في البصرة عند دخوله اليها سنة ٣٦ هـ اذ وجد في بيت المال ستمائة الف وزيادة فقسمها على من شهد معه الوقعة ، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة( ) .فكان علي (رض) لا يدخر من بيت المال ويوزعه في الحال ، فدخل يومياً على بيت فنظر فيه فقال : لا امسي وفيك درهماً( ) ، وقد ترتب على ذلك ان قام الخليفة علي (رض) بتوزيع العطاء على الناس اكثر من مرة في السنة وصلت في احد السنين ان وزع العطاء اربع مرات( ) .

الولايات الاسلامية في عهد علي بن ابي طالب (رض)

لقد كان التقسيم الاداري للاقاليم الاسلامية في عهد علي (رض) لا تختلف كثيراً عن عهد عثمان حيث الولايات نفسها ما عدا بعض التغييرات بسبب الظروف الطارئة مثل ما حصل في الجزيرة ، حيث كانت الجزيرة احدى ولايات الشام ايام عثمان بن عفان (رض) وبعد استشهاده كانت الشام بيد معاوية والعراق تحت سيطرة علي ، مما جعل الجزيرة محل تنازع بين الفريقين نظراً لموقعها الجغرافي بين العراق والشام وسعى الطرفين للسيطرة عليها اذ حدثت معارك عدة للسيطرة عليها وقد استطاع علي (رض) السيطرة عليها سنة ٣٨هـ الا ان عدة معارك جرت على ارض الجزيرة مكنت معاوية بن ابي سفيان السيطرة عليها في اواخر سنة ٣٩هـ ، وهكذا اصبحت هذه الجزيرة مسرحاً لمعارك بين جيش العراق وجيش الشام( ) .

القضاء في خلافة علي (رض) (اقضاكم علي) :

وعلي (رض) بالقضاء وانه كان ابهر قضاة المسلمين على الاطلاق وكيف اقر الجميع بعد قضائه ودقته كيف لا وقد قال رسول الله (ص) " اقضاكم علي " وذكرت المصادر انه كان شديد الاهتمام بهذا الجانب في خلافته .

امر رسول الله (ص) علياً ان يذهب الى اليمن ويقضي بينهم ، فقال علي : يا رسول الله تبعثني الى قوم اسنن مني واني حدث لا ابصر القضاء ، قال :. فوضع يده على صدري ، وقال : " اللهم ثبت لسانه واهد قلبه ، يا علي اذ جلس اليك الخصمان فلا تقتص بينهما حتى تسمع الاخر ما سمعت من الاول فانك اذا فعلت ذلك تبين لك القضاء " ، فقال علي : فما اختلف عليَ قضاء بعد، اوقال : اشكل عليَ قضاء بعد( ) ، قال رسول الله (ص): اقضاكم علي بن ابي طالب( ) .وقال عمر بن الخطاب : علي اقضانا ، وعن ابن مسعود (رض) قال : ان اقضى اهل المدينة علي( ) .

– حادثة زبية الأسد( ) وحكم علي فيها :

من الحالات التي حدثت في زمن الرسول (ص) في اليمن حادثة مقتل اربعة اشخاص في زبية الاسد اذ قضا علي فيها واكد رسول الله (ص)ذلك الحكم اذ قال علي (رض): بعثني رسول الله (ص)الى اليمن فأنتهينا الى قوم قد بنو زبية للاسد ، فبينما هم كذلك يتدافعون ، اذ سقط رجل فتعلق بأخر ، ثم تعلق رجل بأخر ،حتى صاروا فيه اربعة فجرحهم الاسد ، فأنتدب له رجل بحربة فقتله ، وماتوا من جراحاتهم كلهم ، فقام اولياء الاول الى اولياء الاخر ، فأخرجوا السلاح ليتقاتلوا ، فأتاهم علي على تفيئة( ) ، تفيئة ذلك فقال : تريدون ان تتقاتلوا ورسول الله (ص) حيَ اني اقضي بينكم قضاء ان رضيتم فهو القضاءوالا حجز بعضكم عن بعض ، حتى تأتوا النبي (ص) فيكون هو الذي يقضي بينكم ، فمن عدا ذلك فلا حق له ، اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الدية وثلث الدية ، ونصف الدية ، والدية كاملة ، فللاول الربع ، لانه اهلك من فوقه ، وللثاني ثلث الدية ، وللثالث نصف الدية ، وللرابع الدية كاملة فأبوا ان يرضوا ، فأتوا النبي (ص) وهو عند مقام ابراهيم فقصوا عليه القصة ، فقال ان اقضي بينكم احتبي، فقال رجل من القوم : ان علياً قضى فقصوا عليه فأجازه رسول الله (ص)( ) .

وذكرنا حكمة في زبية الاسد في عهد رسول الله (ص) وكيف اقر حكمه النبي (ص) ، اما اشهر القضاة في خلافته فهم :

١. شريح بن الحارث على قضاء الكوفة( ) .
٢. ابو موسى الاشعري الذي ولاه عثمان القضاء على الكوفة فأقره ، علي ثم عزله.
٣. عبد الله بن مسعود ، الوالي والقاضي على اليمن .
٤. عثمان بن حنيف ، على البصرة .
٥. قيس بن سعد ، على مصر .
٦. عمارة بن شهاب ، على الكوفة .
٧. تمام بن العباس ، على المدينة المنورة .
٨. قثم بن العباس ، على مكة والطائف .
٩. عبد الله بن عباس ، على البصرة .
١٠. ابو الاسود الدؤلي ، على البصرة .
١١. سعيد بن نمران الهمداني على الكوفة ثم عزل .
١٢. عبيدة السلماني ، على الكوفة عزل وعين مكانه شريحاً .
١٣. محمد بن يزيد بن خليدة الشيباني ، على الكوفة( ) .

وكان علي (رض) يطلب من ولاته التحري في تعيين القضاة ما يدل على انه خول لهم تعيين القضاة في البلدان التابعة لولاياتهم علماً ان الولاة في الغالب هم قضاة الامصار و وكان للولاة حق النظر في المظالم التي قضي فيها من قبل القضاة المعينين من قبل الولاة( ) .

– مواصفات القاضي ومؤهلاته عند علي (رض) :

وكان علي (رض) يختبر بعض القضاة قبل ان يوليهم او اذا ولوا من قبل ، فسأل علي (رض) احد القضاة : هل تعلم الناسخ من المنسوخ ؟ ، قال: لا ، قال : هلكت واهلكت( ) .

اذ يجب ان يكون القاضي عالماً بأحكام الشريعة وبناسخها ومنسوخها ، وقال علي (رض) : لا ينبغي ان يكون القاضي قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : عفيف ، حليم ، عالم بما كان قبله ، يستشير ذوي الالباب ، لا يخاف في الله لومة لائم( ) .

ومن وصايا علي (رض) للقاضي شريح بعدم التسريع في اصدار الحكم الا بعد دراسة جميع ظروف الحادثة قائلاً : لسانك عبدك مالم تتكلم ، فأذا تكلمت فأنت عبده ، فأنظر ما تقضي ، وفيما تقضي ، وكيف تقضي( ) . ولما عزل ابا الاسود الدؤلي عن القضاء ، قال الى علي لم زلتني وما خنت ولا جنيت ؟ فقال (رض) : انما رأيتك يعلو كلامك على الخصمين( ) .

– درع علي والقاضي شريح :

ذكر الشعبي : وجد عليَ درعاً له عند نصراني ، فأقبل به الى شريح وجلس الى جانبه وقال : لو كان خصمي مسلماً لساويته وجلست معه الا انه لا نصراني ، ثم قال : هذا الدرع درعي ولم ابع ولم اهب ، فقال النصراني : ما الدرع الا درعي ، فألتفت شريح الى علي فقال يا امير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك عليَ وقال : مالي بينة ، وفي رواية اخرى عند السيوطي قال علي : عندي قنبر وابني الحسن يشهدان ، قال شريح : شهادة الابن لا تجوز للاب ، فقضي شريح بالدرع للنصراني واخذه النصراني ومشى خطا ثم رجع فقال : اما انا فأشهد ان هذه احكام الابناء امير

المؤمنين يرفض الى قاضيه ، فيقضي ضده ، اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله ، الدرع والله درع امير المؤمنين( ) .

علمه :

عن الترمذي إن رسول الله قال : " أنا مدينة العلم وعلي بابها "( ) ، ودعا رسول الله بالالهام وفضل العلم قائلاً : " اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب "( ) ، وقال الحسن بن علي بن أبي طالب بعد وفاة أبيه : لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ، ولم يدركه الآخرون ، كان رسول الله يبعثه بالراية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله لا ينصرف حتى يفتح له( ) .

كان علي من علماء الصحابة الكبار ، كان حريص كل الحرص على العلم والقلم ، وقال : ما دخل نوم عيني ، وغمض رأس على عهد رسل الله حتى علمت ذلك اليوم ما نول به جبريل من حلال أو سنة ، أو كتاب ، أو أمر ، أو نهي ، وفيمن نزل وكان يتلقى النص من الرسول مباشرة( ) ، وكان صاحب لسان سئول وقلب عقول ، فقد قال : إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤلاً( ) .

وكان أمير المؤمنين علي من بين القلة من المسلمين الذين كانوا يعرفون الكتابة في صدر الاسلام ، فضلاً عن ذلك فهو من كتاب الوحي فكان من المتبحرين بالعلم( ) ، ولم يكن ينصح بأخذ العلم بمعزل عن العمل ، إذ دعا الى ربط الاثنين علم وعمل قائلاً : تعلموا العلم تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله( ) ، وقد وصل من العلم مرتبة جعلته يقول للناس : سلوني ، فيقول سعيد بن المسيب : ما كان أحداً من الناس يقول : سلوني غير علي بن أبي طالب( ) .

س: كيف قارن علي بين العلم والمال؟

جاءت في وصية الامام علي لكميل بن زياد : " العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو مع العمل ، والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، وصنعة المال تزول بزواله ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الاحدوثة بعد مماته ، مات خازن المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، اعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة( ).

قال وفي أدب المتعلم : من حق العالم عليك أذ أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة ، وتجلس قدامه ، ولا تشير بيدك ، ولا تغمز بعينك ، ولا تقول : قال فلان خلاف قولك ، لا تأخذ بثوبه ، ولا تلحُ عليه في السؤال ، فإنما هو بمنزلة النخلة المرطبة التي لا تزال يسقط عليك منها شيء( ) .

– ومن علومه في اللغة العربية :

عن أبي الأسود الدؤلي قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً فقلت : فيمَ تفكر يا أمير المؤمنين؟ ، قال : أني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية ، فقلت : إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة ، ثم أتيته بعد ثلاث ، فألقى إلي صحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، الكلمة اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم : ما أنبأ عن المسمى ، والفعل : ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحروف : ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثم قال : تتبعه وزد فيه ما وقع لك وأعلم يا أبا الأسود إن الاشياء ثلاثة : ظاهر ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر ، قال أبو الأسود : فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها إن وأن وليت وكأن ، ولم أذكر (لكن) فقال : لي : لمَ تركتها؟ ، فقلت : لم أصبها منها فقال : بل هي منها فزدها فيها( ) .

وكان علي ممن يقول الشعر ، فعن الشعبي قال : كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان علي أشعر الثلاثة( ) ، وعن الشعبي عن علي أنه خرج عليهم وهو يقول : ما أبردها على الكبد ، فقيل له : وما ذلك؟ ، قال : إن تقول للشيء لا تعلمه : الله أعلم( ) .

– روايته للحديث النبوي :

روى له عن النبي خمسمائة وست وثمانون حديثاً ، وقد روى عنه بنوه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية عليهم السلام ، وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو موسى الأشعري وأبو سعيد وأبو هريرة والعديد من الصحابة التابعين( ) .

موقعة الجمل (٣٦هـ) :

لقد أحدثت مقتل عثمان تصدعاً في المجتمع الاسلامي ودخل الناس في فتن لاحقة جراء هذا الحادث ، إذ انقسم الناس في طريقة معالجة الفتنة وما ترتب عليها ، فمنهم من رأى الانتظار حتى تهدأ الأمور وهو فريق الخليفة علي بن أبي طالب ، وفريق أراد التعجل في إقامة الحد على القتلة متمثلاً بجيش طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، وفريق ثالث رأى الاعتزال لهذه الفتنة والجلوس عنها أسلم وأصح ، فيما كان مثيري من أتباع ابن سبأ يحاول إثارة الوقيعة بين المسلمين وعدم ترك الأمور تهدأ خشية ملاحقة الخليفة أو من أراد الاقتصاص منهم، فكانت المواقف مختلفة لدى المسلمين في معاقبة قتلة عثمان على النحو الآتي :

– موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

وذكرنا من قبل أن علياً كان يرى وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان ، إلا أنه كان يرى أن يؤخر الاقتصاص من هؤلاء الى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجماع الكلمة .

– موقف الصحابة في المدينة :

كان الاعتزال هي الصفة البارزة على أغلب الصحابة في المدينة المنورة ، إذ أن صدمة مقتل عثمان جعلت منهم أن يروا أحداث يوم الدار وما تلاها ما هي الا فتنة والابتعاد عنها هو الصواب فهم لم يخرجوا الى الجيش الذي ناد بجمعه والتوجه به للشام لردع من خرج عليه في الشام ، فضلاً عن عدم التحاقهم بالجيش المتوجه الى البصرة .

وذكر ابن حجر : إن جُل أصحاب رسول الله تخلفوا عن القتال في زمن علي وآثروا السكون والركون الى السلام والتباعد عن الأحداث التي جرت بعد مقتل عثمان ، وحدد ابن حجر بعض الصحابة المتجنبين القتال ومنهم سعد بن أبي وقاص ، وأبو موسى الأشعري ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، واسامة بن زيد ، وأبو أيوب الأنصاري وآخرين( ) . إذ لم يشهد موقعة الجمل من البدريين من صحابة رسول الله غير علي بن أبي طالب ، وياسر وطلحة والزبر( ) .

– موقف أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) :

كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) من الذين يصرون على الاقتصاص من قتلة عثمان ، فعندما وصلت أخبار مقتل الخليفة الى مسامع عائشة (رضي الله عنها) التي كانت في طريق العودة الى المدينة قطعت مسيرتها وعادت الى مكة حتى اجتمع الناس حولها ، إذ كانت من فقهاء ومحدثي المسلمين ، وكان لها تأثيراً على الناس تميزت به عن بقية أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) ، قالت : أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة اجتمعوا فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، والله لأصبع عثمان خير من طبقات الأرض أمثالهم ، وإن عثمان قُتل مظلوماً والله لأطلبن بدمه( ) . حتى وصل الى مكة طلحة والزبير والتقى المسلمين هناك وأم المؤمنين حتى اتخذوا القرار بالخروج والمطالبة بدم عثمان .

وفي هذا الشأن يقول ابن العربي : وأما خرجها الى البصرة فما خرجت عائشة (رضي الله) لحرب ، ولكن تعلق الناس بها وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتعارج الناس ، ورجوا بركتها في الاصلاح ، وطمعوا في الاستحياء منها إذ وقفت للخلق ، وظنت هي ذل فخرجت مقتدية بقوله الله عز وجل : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾( ) ، والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر أو انثى حر أو عبد( ) .

– موقف طلحة والزبير :

بينا في موضوع سابق إن طلحة والزبير قد طالبا علي بالاقتصاص من قتلة عثمان في المدينة واقترحا عليه جلب الرجال من البصرة والكوفة للمساعدة إلا أن الخليفة رفض المقترح عاداً ذلك حرباً أهلية في هذا الوقت ، وبعد مرور أربعة أشهر على حادثة الدار دون أن يمكن علي من معاقبة الجناة بسبب الظروف الراهنة طلب طلحة والزبير من علي الخروج من المدينة فوافق ، حيث ذهبا الى مكة والتقوا بجمع غفير من المسلمين وطالبا الناس بالخروج للاصلاح من خلال معاقبة مرتكبي الجريمة وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٣٦هـ( ) ، قال طلحة : إن كان مني في عثمان شيء ليس نوبتي إلا أن يُسفك دمي في طلب دمه( ) .

أما الزبير فقال : فنهض الناس فيدرك بهذا الدم لئلا يبطل ، فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً ، إذ لم يفطم الناس عن أمثالهم لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب ، والله أن ترك هذا لشديد( ) .

– موقف أهالي مكة :

كانت هناك ضغوط نفسية كبيرة في مكة على الذين وجدوا أنفسهم لم يفعلوا شيئاً لإيقاف عملية قتل الخليفة المظلوم ، فقد اتهموا أنفسهم بأنهم خذلوا عثمان وأنه لا تكفير لذنبهم هذا إلا الخروج للمطالبة بدمه ، علماً أن عثمان هو الذي نهى كل من أراد أن يدافع عنه في حياته ، فهذا الاحساس الضاغط على النفوس المحبة لعثمان لاسيما في مكة كفيلاً بأن يحرك الناس ويخرجهم من راحتهم واستقرارهم ، بل كانوا يخرجون وهم يدركون إنهم يخرجون الى أهوال مجهولة ، فكل واحد منهم خرج من بيته وهو غير متوقع العودة مرة أخرى ، فشيعه أولاده بالبكاء وسمي يوم خروجهم من مكة نحو البصرة بيوم النصيب ، فلم يرى يوم كان أكثر باكيا على الاسلام من ذلك اليوم( ) .

– اختيار البصرة :

س: ما سبب توجه جيش مكة الى البصرة أولاً قبل غيرها من الأمصار؟

ناقش الجيش بعد تجمعه في مكة لاسيما قادته طلحة والزبير وعائشة وبني أمية الى أي جهة يكون مقصدهم ، فمنهم من اقترح المدينة المنورة بصفتها المركز أو التجمع للغوغاء إلا أن هذا الرأي استبعد بسبب كثرة الثوار وصعوبة مواجهتهم في هذا الوقت ، واستبعد أيضاً التوجه الى الشام للاستعانة بهم ففيها معاوية الذي يستعد للغرض نفسه ، فضلاً عن كونه خارج عن طاعة الخليفة علي ، لذا جاء القرار بالتوجه الى البصرة لأنها أقل البلدان قوة وسلطة وفيها من الأتباع الكثير ما يستطيعون تحقيق أهدافهم( ) .

وكانت الخطة تقضي الدخول الى البصرة وإعلام الناس بما فعل الغوغاء ، ومن ثم الاستعانة بأهلها على قتلة عثمان الموجودين فيها ، ومن ثم الذهاب الى الكوفة والاقتصاص ممن شارك من أهلها في قتل عثمان ، ثم الدعوة الى أهل الأمصار كاف للشر ذاته حتى ينهي الأمر بتضييق الخناق على ما بقى منهم في المدينة المنورة فيأخذونهم بأقل قدر ممكن من الضحايا( ) .

– ما قبل المعركة :

عندما وصل جيش طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة الى البصرة نزلوا جانب الخريبة وبدؤوا يرسلون الى أعيان وأشراف القبائل يستعينون بعم على قتلة عثمان ، فقد انظم خلق كثير من أهالي البصر اليهم ، وبذلك أصبح

لطلحة والزبير أنصاراً جدد ، وقد نشبت مصادمات مسلحة بين فريق الداعمين لجيش طلحة والزبير من جهة وبين من شارك في مقتل عثمان ومناصريهم من جهة أخرى ، وانتهت هذه الجولة بقتل جميع من شارك في قتل عثمان من أهالي البصرة ولم يفلت إلا واحداً منهم وهو حرقوص بن زهير( ) ، وبذلك سيطر طلحة والزبير ومن معهم على البصرة( ) .

ولما وصلت الأخبار الى الامام علي وهو في المدينة بما جرى خرج بجيش قوامه سبعمائة رجل بينهم بعض الكوفيين والبصريين مستخفين ضمن الجيش قاصداً البصرة لوقف التطورات الأخيرة وحقن دماء المسلمين( ) ، وعندما وصل الامام علي الى الربذة استنفر أهل الكوفة ودعاهم الى الالتحاق به وأكمل مسيرته حتى وضل ذي قار وهو في تسعمائة رجل تقريباً ، وقد التحق من أهل الكوفة بعلي ما يقارب سبعة آلاف رجل ومن أهل البصرة ألفان ثم توافدت عليه القبائل الى أن بلغ جيشه اثنى عشر ألف رجل( ) .

س: ما سبب قدوم علي بجيشاً الى البصرة؟

عندما سُئل الامام علي عن سبب قدومه الى البصرة قال : عليَّ الاصلاح واطفاء النائرة (العداوة) ، لعل الله يدمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم( ) ، وسأله أحد أتباعه في البصرة قائلاً : ألك حجة في تأخير الاقتصاص؟ ، قال الامام علي : نعم ان الشيء اذ كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعاً( ) .

– مساعي الصلح :

قبل أن يتحرك الامام علي بجيشه نحو البصرة أقام في ذي قار أياماً وكان يسعى في تلك الايام للقضاء على هذه الفتنة بالوسائل السلمية وتجنب المسلمين القتال والصدام المسلح بكل ما أوتي من قوة وجهد ، وكان من مساعي الصلح وتجنب الفتنة الجديدة أرسل الامام علي القعقاع بن عمرو التميمي الى طلحة والزبير في مهمة للصلح ، وذهب القعقاع الى البصرة فبدأ بعائشة (رضي الله عنها) وقد حضر الاجتماع طلحة والزبير وسألهم ما الذي جاء بكم الى البصرة؟ ، قالوا : الاصلاح بين الناس من خلال الاقتصاص من قتلة عثمان ، فان تركوا دون قصاص كان هذا تراكاً للقرآن وتعطيلاً لأحكامه ، وان اقتص منهم كان هذا إحياءً للقرآن ، فقال القعقاع : لقد قتلتم قتلة عثمان في البصرة إلا رجلاً واحداً وهو حرقوص بن زهير السعدي ، فلما هرب منكم احتمى بقومه من بني سعد ، ولما أردتم أخذه منهم وقتله منعكم قومه في ذلك وغضب له ستة آلاف رجل اعتزلوكم ، ووقفوا أمامكم وفقة رجل واحد فإن تركتم حرقوصاً ولم تقتلوه كنتم تاركين لما تقولون وتنادون به وتطالبون علياً به ، وان قاتلتم بني سعد من أجل حرقوص وغلبوكم وهزموكم وأديلوا عليكم ، فقد وقعتم في المحذور ، وقويتموهم واصابكم ما تكرهون ، وانتم بمطالبتكم بحرقوص اغضبتم ربيعة ومضر من هذه البلاد ، حيث لجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لني سعد ، وهذا ما حصل مع الامام علي ووجود قتلة عثمان في جيشه ، واضاف قائلاً : ان هذا دواؤه التسكين فاذا انتهت الخلافات واجتمعت كلمة الأمة على أمير المؤمنين تفرغ لقتلة عثمان وان انتم بايعتم علياً واتفقتم معه كان هذا علامة خير وتباشير رحمة وقدرة على الأخذ بثأر عثمان ، وان انتم أبيتم ذلك وأصررتم على المكابرة والقتال كان هذا علامة شر وذهاباً لهذا الملك فكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً ولا تعرضونا للبلاء فيصرعنا وإياكم( ) .

اقتنع طلحة والزبير وعائشة بكلام القعقاع ووافقوا على دعوته للصلح وقالوا له : قد أحسنت وأصبت المقالة فارجع ، فان قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر إن شاء الله ، فعاد القعقاع الى الإمام علي في ذي قار وقد نجح في مهمته ، وأخبر الامام علي بما جرى معه فأعجب علي بذلك وأوشك القوم على الصلح كرهه من كرهه ورضيه من رضيه( ) . فقرر الامام علي الرحيل الى البصرة صوب القوم وطالب بعدم مسير من أعان على عثمان معه الى البصرة( ) ، وقد التقى الامام علي بطلحة والزبير وتكلموا فيما اختلفوا فيه وحتى اتفقوا على

الصلح ، ورجع كل طرف الى معسكره وأخبر جيشه بالصلح وانقشاع الأزمة ، فبات الناس على نية الصلح ، وبات الذين أثاروا الفتنة بشر ليلة باتوها( ) .

– نشوب القتال وانهيار الصلح :

كان في معسكر الامام علي عدد من الغوغاء الذين شاركوا في قتل عثمان أو أعانوا عليه وهم غير معروفين ، وإن هذه الثلة من أتباع ابن سبأ قد شعروا بالخطر الذي يحيط بهم فيما لو استقرت الأمور وتصالح القوم فهذا يعني أنهم سيلاحقون ويقتص منهم حال استقرار الأحوال ، وجعلوا يتشاورون حتى استقر رائيهم على اشعال الحرب بين الطرفين ، ففروا في الغلس وعليهم ظلمة وما يشعر بهم جيرانهم فخرج مضريهم الى مضريهم وربيعهم الى ربيعهم فوضعهم فيهم السيوف ، فثار أهل البصرة وثار البصرة كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم وكلاً يتهم الآخر بالغدر( ) .

وهكذا تم اشعال نيران معركة ضارية لأول مرة بين المسلمين فقتل المسلم أخاه المسلم ، وقد عرفت هذه المعركة باسم معركة الجمل ، لأن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) كانت قرب المعسكر تركب الجمل ، وكانت المعركة في يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ في منطقة الزابوقة قرب البصرة( ) .

– أثناء القتال :

كانت المعركة على جولتين الأولى بدأ منذ الفجر وانتهت قبيل الظهر ، إذ كان يقود جيش البصرة الزبير بن العوام وطلحة ، فيما قاد المعركة أو الجيش في الطرف الآخر الامام علي بن أبي طالب الذي أوصى جيشه أن لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ، ولا تلحقوا خارجاً من المعركة تاركاً لها ، والأمر نفسه كان يوجه من قبل طلحة والزبير لجيشهما وفي هذه الأثناء توقف القتال بعد أن سقط العديد من القتلى( ) .

– انسحاب الزبير بن العوام من المعركة :

في أثناء توقف المعركة دنا الامام علي من صفوف أهل البصرة فنادى : ادعوا لي الزبير بن العوام ، فدعي له الزبير ، فأقبل حتى اختلفت اعناق دوابهما ، فقال الامام علي : يا زبير أنشدتك الله أتذكر يوم مررنا أنا وأنت برسول الله ويدي بيدك ، فقال لك رسول الله : " يا زبير ألا تحب عليا؟ ، فقلت : ألا أحب ابن خالي وابن عمتي وعلى ديني؟ ، فقال : يا زبير أما والله تقاتلنه وأنت له ظالم " ، فقال الزبير : بلى ، والله لقد نسيته منذ أن سمعته من رسول الله ، ثم ذكرته الآن والله لا اقاتلك أبداً ، ورجع الزبير على دابته يشق الصفوف ، وقد خرج الزبير من المعركة ، فألحقه عمرو بن جرموز في أثناء الطريق حيث نزل الزبير للصلاة في ذلك ضرب عمرو بن جرموز بسيفه الزبير وأرداه قتيلاً ، وأخذ سيفه ودرعه وأقبل على الامام علي ، ولما رأى الامام علي السيف قال : إن هذا السيف طالما خرج به صاحبه الكرب عن رسول الله ، وقال لعمرو : ابشر يا قاتل بن صفية بالنار( ) .

أما طلحة بن عبيد الله القائد الثاني لجيش البصرة فقد أصيب في المعركة إذ جاءه سهم لا يعرف من رماه فأصابه إصابة مباشرة ونزف دمه بغزارة وذهب الى أحد البيوت ليعالج فيها ، ولكن جرحه ما زال ينزف حتى توفي في البيت ثم دفن في البصرة( ) .

وبخروج الزبير من ميدان المعركة وبموت طلحة ، فضلاً عن سقوط القتلى والجرحى من الجانبين تكون قد انتهت الجولة الأولى من معركة الجمل ، إذ كانت الغلبة فيها لجيش الامام علي ، فكان الامام علي ينظر الى القتلى والجرحى في الجانبين ويبكي حزناً على ما جرى قائلاً : وأي خير يرجى بعد هذا؟( ) .

– الجولة الثانية :

وما أن وصلت الأخبار الى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) بما حدث من انتقاض الصلح ونشوب معركة ضارية بين الطرفين خرجت على جملها ومعها من يرافقها ونادت الناس لوقف القتال ، فرمى السبئيين نبالهم حتى

أصابت هودج عائشة (رضي الله عنها) وهي على جملها ، وكان الامام علي يأمر بالكف عن القتال لكن لا مجيب ، فقالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : أيها الناس العنوا قتلة عثمان ، ولما سمعها الامام علي تلعن قتلة عثمان ، قال الامام علي : ادعوا على قتلة عثمان ، إذ قال : اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل( ) ، اشتد القتال وحاولوا السبئيين عقر الجمل وقتل عائشة (رضي الله عنها) ، فسارع أهل البصر لحماية هودجها حتى أصبح الهودج كأنه لما رمي فيه من النبل( ) ، وقد قتل من حول الجمل خلقاً كثيراً حتى أمر الامام علي إخراج السيدة عائشة (رضي الله عنها) من المعركة وإبعاد هودجها عن ساحة القتال ، فما أن خرج الهودج من ميدان المعركة حتى انتهت المعركة بهزيمة جيش البصرة .

– ما بعد المعركة :

اسفرت هذه المعركة عن عدد من القتلى والجرحى اختلفت الروايات في تقديرها ، إذ قيل : عدد القتلى في معركة الجمل عشرون ألفاً( ) ، وقيل : خمسة عشر ألفاً( ) ، إلا أن الأقرب للصواب إن عدد القتلى أقل بكثر من ذلك إذ قد يصل الى بضع مئات ، وأورد خليفة بن خياط في تاريخه اسماء من قتل يوم الجمل فكانوا قريب المائة( ) .

وتألم علياً لنتيجة المعركة التي أزهقت أرواحاً كثيرة من المسلمين ، وجمع القتلى من الطرفين ودعا لهم وصلى صلاة الأموات عليهم ، ولم يرمي أحد من خصومه بالكفر وإنهم مسلمون وحرم ومنع سلبهم والنيل من منزلتهم ، وأقام في المعسكر ثلاثة أيام لا يدخل البصرة وترحم على الزبير وبشر قاتله بالنار ، ودعا الله أن يجمعه بطلحة في الجنة( ) .

ثم اجتمع الامام علي بأم المؤمنين عائشة في دار عبد الله بن خلف الخزاعي ، إذ نقلت بعد انتهاء الواقعة وجرى بينهما حوار هادىء هو أقرب الى الاستعتاب ، ثم سيرها الى المدينة يوم السبت غرب رجب في جماعة من نساء أهل البصرة المعروفات لمؤانستها في الطريق ، وجعل في صحبتها أخاها محمد بن أبي بكر ، وزاد في تكريمها بأن خرج بنفسه مودعاً عدة أميال ، وقد ندمت على ما جرى واعتزلت السياسية ما بقي من حياتها وكرست نفسها للعبادة( ) .

وبايع أهل البصرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، إذ بايعته القبائل كلها( ) ، وولي عليهم عبد الله بن عباس ، وولي على خراجها زياد بن أبيه( ) .

والخلاصة : لم يكن هناك أي خلاف جذري بن علي واولئك الذين كانوا يستعجلون في طلب الثأر من قتلة عثمان ومن معهم كانوا حريصين على أن يكون تنفيذ القصاص في حق اولئك القتلة أول الأعمال التي يفتتح بهل علي خلافته وعهده .

أما علي فكان يرى ضرورة البدء بتوطيد الأمور وإعادة النظام ، ثم السعي الى اقتناص قتلة عثمان والاحاطة بهم بطرق أكثر هدوءاً ولباقة ، وبموجبه تم الصلح بين الامام علي وطلحة والزبير وعائشة ، إلا أن كيد إبطال الفتنة وفي مقدمتهم ابن السوداء عبد الله بن سبأ الذين أفزعهم اتفاق المسلمين هذا حتى لحقوا المكيدة المعروفة حتى يظن كل طرف أن الطرف الآخر قد غدر به .

إذن هذه الفتنة لم تنبعث من رعونة هيمنت على نفوس الصحابة سواء كانوا في هذا الطرف أو ذاك ، وإنما انبعثت من دخلاء مدسوسين كانوا يمكرون بلؤم بحق الصحابة كلهم دون تفريق ، ولكن مع الأسف نجد أكثر الذين كتبوا بهذا الموضوع يتحدثون عن السطح الظاهري مفصولاً عن جذوره وعوامله ، ويسمون ضحايا الفتنة هجوماً وتحريماً واتهاماً ولا يلتفتون بشكل جدي الى صناع هذه الفتنة بدءاً من التخطيط لقتل عثمان وانتهاءً بقتل علي ، وكما يقول الشيخ البوطي : أليست الكتابة عن هذه الفتنة باسلوب الطعن والتجريح للصحابة دون المس بابطالها الحقيقين يعد جزءاً لا يتجزأ من المكيدة ذاتها( ) .

– الكوفة عاصمة الخلافة :

اما ولاية الكوفة فأصبحت بعد معركة الجمل ٣٦هـ قاعدة الخلافة اذ استقر علي (رض) فيها وبالتالي كان علي هو السؤول المباشر عن احوال الكوفة وما يتبعها من ولايات ، واصبح لها مكانة خاصة ما بقي من عهد علي (رض) حيث كانت عاصمة الخلافة ومنها يدير امير المؤمنين مختلف انحاء الدولة ، واليها تقدم الوفود ، ومنها تخرج الاجناد ، وكما كان ذلك سبباً في جذب السكان اليها ، وهذا بدوره ادى الى تنشيط الحركة التجارية والعمرانية في الكوفة طيلة خلافة علي (رض) ( ) .

س : ما الدوافع التي جعلت الامام علي ان ينقل مقر الخلافة وعاصمتها من المدينة المنورة الى الكوفة ؟

بعد الفوضى التي شاعت في المدينة المنورة ومعارضة اهل الشام لمبايعة علي (رض) دعا الخليفة علي بن ابي طالب المسلمين في المدينة للنهوض الى الشام ومن ثم حدث تجمع في البصرة وشعور علي (رض) من فتنة اخرى وهو ما عرف بمعركة الجمل ، قرر علي ان ينتقل الى الكوفة للاسباب التالية :

١. كان يرى علي ان المدينة لم تعد تمتلك المقومات التي تمتلكها بعض الامصار في تلك المرحلة .
٢. اخذ يفكر في الانتقال الى العراق وتحديداً الكوفة ليكون قريباً من اهل الشام الخارجين عليه .
٣. تثاقل اهل المدينة عن دعم علي ونصرته والتوجه معه الى البصرة والشام اذ كان يرى بعض اهل المدينة ان الفتنة مازالت مستمرة ولابد من التروي حتى تتضح الامور دفع الامام علي بالبحث عن الانصار خارج المدينة .
٤. كان علي يرى ان في العراق من يسانده قائلاً: ان الرجال والاموال بالعراق .
٥. اغلب الصحابة حاولوا اقناع علي (رض) عن المسير نحو العراق والخروج من المدينة الا انه اصر على مغادرتها واستقر فيها .

أحداث صفين :

بالرجوع الى الاحداث سبقت موقعة الجمل فإن علي حين تولى الخلافة كان من أولوياته استقرار الأوضاع المضطربة بعد مقتل الخليفة عثمان ، فضلاً عن اجراءاته الاصلاحية المتمثلة بتغيير ولاة الأمصار ، إذ كان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام في عهد عمر وعثمان ، وقد أرسل الامام علي سهيل بن ضيف والياً على الشام بدلاً من معاوية ، إلا أن مجموعة من أهل الشام اعترضوا ابن ضيف عند مشارف الشام فقالوا له : أين كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فأرجع( ) .

وهذا يعني إعلان التمرد على سلطة الخلافة ، إذ كان معاوية ومن معه من أهل الشام يرى إن عليه مسؤولية الانتصار لعثمان والقصاص من قاتليه ، كونه ولي الدم ، لذلك جمع معاوية الناس وخطب بهم بشأن عثمان ، وإنه قتل مظلوماً وطالب الناس بتأييده في الاقتصاص من القتلة ، فكان السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بيعة علي ، ورأوا إن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة ، وليس لاطماع معاوية في الخلافة ، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً إن هذا الأمر أي الخلاقة في بقية الستة من أهل الشورى ، وإن علياً أفضل وأولى بالامر منه ، فإن الناس ومعاوية يدركون إن علياً ليس كفاءً له( ) .

وأدرك الامام علي إن الامر يقتضي السير الى الشام وإخضاعها لسلط الخلافة ، وإن كانت القة هي السبيل الوحيد حتى تستقيم الأمة ، أخذ يجهز الجيش واستخلف قثم بن العباس على المدينة في أثناء ذلك وصلت الأخبار

الى المدينة بخروج جيش البصرة عند إذن قرر الخليفة علي تأجيل مهمة الذهاب الى الشام لتكون وجهته البصرة ، فكان ما كان من أحداث يوم الجمل ، ثم استقر علياً في الكوفة واتخذها عاصمة للخلافة ، وفي محاولة من الخليفة علي لحل العقدة الشامية بالوسائل السلمية ، إذ بعث الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي وحمله كتاب الى معاوية بن أبي سفيان يذكر فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويخبره بما كان من موقعة الجمل ، ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه الناس ، وفي ضوء ذلك اجتمع معاوية مع رؤوساء الشام للتشاور بهذا الخصوص ، بيد أن القوم أبوّ أن يتبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان أو يسلموا اليهم وان لم يفعل علياً فلم يبايعوه بل يقاتلوه( ) ، وكرر الامام علي المحاولة في رمضان سنة ٣٦هـ اذ بعث الى معاوية حمزة بن يزيد وعمرو بن زرارة النخعي وكان الجواب ذاته من معاوية( ) .

ويعد وصول المفاوضات الى طريق مسدود استعد علي لغزو الشام وجهز جيشاً يقدر بخمسين ألفاً( ) ، إذ تجمع الجيش في الكوفة ثم توجه الى المدائن وبعدها سار حتى وصل قرقيسياء تقع عند الخابور عند مصبه في الفرات ، وبالمقابل خرج معاوية بجيشاً لملاقاة جيش علي وعسكر بصفين حتى وصل جيش العراق الى صفين حيث اجتمع الجيشان( ) .

– المواجهة الأولى :

لما وصل جيش أهل العراق الى صفين في ذي الحجة كان معاوية وجيشه قد سبقه الى المكان وكان جيش الشام قد سيطروا على الماء في صفين محاولين منع جيش الامام علي من الوصول إليه ، حتى دارت مواجهة مسلحة وابعدوا بموجبها جيش الشام عن الماء ، وقيل : انسحب جيش الشام من الماء دون قتال تتبعه مفاوضات جرت بين الطرفين( ) .

وكانت المواجهات العسكرية بين الطرفين قد استمرت على طول شهر ذي الحجة إلا أن القتال كان متقطع على شكل كتيبة تخرج من كل فريق ثم يعودا ، وكانت تجري الاشتباكات بهذا الشكل البسيط أملاً في وقوع الصلح بين الطرفين لحق الدماء( ) .

وما أن دخل شهر محرم من سنة ٣٧هـ بدأت هدنة ومراسلات بين الجيشين ، وكان من بدأ بالمراسلة الامام علي داعياً معاوية الى الدخول في الجماعة والمبايعة ، بيد أن جواب معاوية كان ذاته بالامتناع عن البيعة إلا بقتل أو تسليم قتلة عثمان ( ) ، وقد تدخل عدد من الصحابة في محاولة الصلح لكن دون جدوى ، إذ أن كل فريق متمسك بما يراه( ) .

واستأنف القتال من جديد بعد محرم ، إذ حصلت في الاسبوع الأول من صفر أكثر من سبعين وقعة ، إلا أن علي أعلن في جيشه أن غداً وكان يوم الاربعاء (١١ من صفر) سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش ، يقابله الأمر نفسه في الطرف المقابل ، وبات الجيشان يعدان العدة ليوم الالتحام ، وبالفعل تصادم الجيشان في قتال عنيف استمر محتدماً حتى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة ، حتى انتهى ذلك اليوم ولا منتصر بينهما( ) .

– اليوم التالي :

وفي اليوم التالي وهو الخميس استعد علي منذ الفجر للهجوم وغير بعض القيادات وزحف الفريقان نحو بعضهما واشتبكوا في قتال عنيف أشد من سابقه وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقاً على أهل الشام ، ثم مالت الكفة الى أهل الشام وأظهروا تقدماً( ) .

– عمار بن ياسر :

س: ما هو موقف عمار بن ياسر من حرب صفين؟

كان عمار بن ياسر وهو صحابي مهاجري بدري قد جاوز الرابعة والتسعين سنة ، وكان يحارب الى جانب علي وكله حماس رغم كبر سنه ، وكان يحرض الناس على الثبات ويستنهض الهمم إلا أنه يدرك الأمور جيداً وان أهل الشام باغين وليس بكفار ، فقد سمع رجلاً بجواره يقول : كفر أهل الشام ، فنهاه عمار عن ذلك ، وقال : إنما بغوا علينا ، فنحن نقاتلهم لبغيهم فإلهنا واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة ، وعندما رأى عمار تقهقر اصحابه وتقدم خصومه ، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق ، فكان لعمار دوراً بارزاً في رفع معنويات وحماس جيش علي ، وقد استطاعوا بهذا الحماس أن يحولوا المعركة لصالحهم ، وعند غروب شمس ذلك اليوم الخميس ، طلب عمار شربة لبن ثم قال : إن رسول الله قال لي : " إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن "( ) ، ثم تقدم وقتل رحمه الله ورضي عنه ، وبذلك تحقق لدى الجميع أن جيش الشام هو الفئة الباغية من خلال حديث الرسول إذ قال لعمال : " تقتلك الفئة الباغية "( ) .

– يوم الهرير (يوم الجمعة) :

عاد القتال في نفس الليلة وبشد واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة حتى وصل الأمر الى الترامي بالحجارة والتراب وسمي بيوم الهرير حتى صبح يوم الجمعة( ) ، وبعد ما جرى من قتل شعر الطرفين بقساوة ما حصل ورأى القوم إن هذه الخسارة ليس في مصلحة المسلمين بل تصب في صالح أعداءه لاسيما الروم والفرس ، حتى نشأة فكرة وقف القتال في صفوف جيش الشام ورفع المصاحف على الرماح أو ما عرفت بالتحكيم( ) .

وبالتالي فان الدعوة الى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له ، تطور فرضته أحداث حرب صفين ، إذ أن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين والتي كانت بعد معركة الحمل بستة أشهر قد فاقت ضحاياها أضعافاً مضاعفة لما وقع في يوم الجمل ، وان علي وافق على التحكيم ووقف القتال وعد ذلك فتحاً ورجع( ) .

– عدد القتلى في صفين :

تضاربت الأقوال في عدد القتلى فمنهم من قال عدد الضحايا يصل الى تسعين ألفاً ، وآخر قال سبعين ألفاً ، لكن وبكل الأحوال وعلى الرغم من الضحايا في ثلاثة أيام إلا أنها لم تصل الى مثل هذا الرقم لاسيما أن معركة القادسية على الرغم من قساوتها لم تتجاوز ثمانية آلاف ، وبغض النظر عن العدد فإنها كانت فتنة عظيمة أبتلى بها المسلمون فيما بينهم بسبب الاجتهادات لاسيما ما اجتهد به معاوية ومن معه وخروجهم على أمير المؤمنين وعدم طاعته ، وبالتالي خسر المسلمون آلاف القتلى ، وكان الأولى أن يوجه للفتح الإسلامي من ربوع المعمورة ولكن الله قدر ما شاء .

التحكيم :

كان رفع المصاحب من قبل مقاتلي أهلي الشام بمثابة دعوة الى وقف القتال بين المسلمين واتخاذ القرآن حكماً بين الطرفين المتخاصمين (كتاب الله يحكم بيننا وبينكم) ، إن ما يترتب على قبول التحكيم مسألتان الأولى وقف القتال ، والثانية اللجوء الى التحكيم ، والواقع إن رغبة السلام كانت قوية لدى أغلبية جيش علي ، وإن كان البعض رفضها إذ بلغ عدد الرافضين لهذا الصلح زهاء أربعة آلاف شخص وهو ما ذكره البلاذري( ) .

وإن هؤلاء الرافضين لمبدأ التحكيم اعتقدوا حين امتثلوا لحكم القرآن إن دوراً ما سيؤكل إليهم لإصدار الحكم من خلال مضمونه رافضين تدخل البشر التحكيم وإن القرآن سوف يدين معاوية لأنه يمثل الفئة الباغية ، فلما وقف القتال بعد إن لاحت أفق النصر على جيش الشام ، وبالتالي كانت عملية رفع المصاحف هي بمثابة استسلام جيش الشام ، ومن هنا كان الانقسام في جيش علي ، وعندما جال الأشعث بن قيس بين المقاتلين في جيش العراق ليروج لفكرة

التحكيم ، اندفع الرافضون أمامه يصرخون في وجهه (لا حكم إلا لله) فعرفوا بالمحكمة وأعلنوا توبتهم عن قبول وقف القتال وطالبوا علياً أن يستأنف الحرب( ) .

أخيراً أقر مبدأ التحكيم وكان أهل العراق قد رشحوا أبو موس الأشعري ممثلاً عنهم ، وكان عمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام .

– وثيقة التحكيم :

كتبت وثيقة التحكيم يوم الاربعاء ١٣ صفر سنة ٣٧هـ ، وتتضمن تسليم الطرفين المتنازعين أمرهما لحكم القرآن ، وإن الحكمين المذكورين (عمرو بن العاص عن أهل الشام ، وأبو موسى الأشعري عن أهل العراق) ملزمان بالتقيد بحكم القرآن وحدد الأجل بثمانية أشهر ينتهي في شهر رمضان من السنة نفسها ، ويكون مكان الاجتماع في دومة الجندل أو اذرح( ) .

– بنود الاتفاق( ) :

١. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ، فما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه .

٢. إنا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته الى خاتمته ، نحي ما أحيا ونميت ما أمات على ذلك تقاضينا وبه تراضينا .

٣. إن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) ناظراً وحاكماً ، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظرا وحاكماً .

٤. إن علياً ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، أن يتخذا القرآن إماماً ولا يعدوا به الى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً ، ما لم يجدا في الكتاب أداه سنة رسول الله الجامعة ، لا يعتمدان لها خلافاً ولا يبغيان فيها بشهية .

٥. وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به ، مما في كتاب الله وسنة نبيه وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه الى غيره .

٦. فإن توفى أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة ، يرشح مكانه رجلاً من أهل العدل والاصلاح على ما كان عليه صاحبه من العهد .

٧. والأجل الى انقضاء شهر رمضان ، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجلاها ، إن رأيا تأخيرها الى آخر الأجل أخراها .

٨. الناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم وأموالهم الى انقضاء الأجل والسلاح موضوعة والسبل آمنة ، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر .

٩. وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطاً عدلاً بين أهل العراق والشام ، ولا يحضرهما فيه الا من أحبا عن تراضي منهما .

١٠. وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر ، وهم جميعاً يد واحدة على ما أراد في هذا الأمر .

وبهذا الاتفاق دعا الامام علي قواته بعد يومين من إنجاز الوثيقة للعودة الى الكوفة بعد أن أمر بدفن القتلى واطلاق سراح الأسرى وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٧هـ( ) .

– ظهور فرقة الخوارج :

الخوارج : هم أولئك النفر الذين خرجوا على الامام علي بعد قبوله التحكيم في موقعة صفين بعد أن شاركوا الى جانبه في تلك المعركة قبل التحكيم ، ولهم ألقاب أخرى عرفوا بها غير لقب الخوارج منها :

١. الحرورية : نسبة الى نزولهم بحروراء في أول أمرهم .
٢. الشراة : إذ قالوا شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بالجنة .
٣. المارقة والمحكمة : لقولهم إن الحكم إلا لله .

وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا بالمارقة فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقين من الدين( ) .

وكان أمرهم قديداً أثناء عودة جيش الأمام علي الى الكوفة من معركة صفين ، إذ انفصل من جيشه ما سموا بالخوارج وهم بالالاف قبل أن يصلوا الكوفة بمراحل ، فيما سار الامام علي بمن بقي من جيشه حتى دخل الكوفة ، ووصلت الأخبار إن هؤلاء القوم المنشقين بدأ ينظمون أنفسهم وعينوا أميراً للصلاة وآخر للقتال ، وإن البيعة لله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مما يعني انفصالهم فعلياً عن جماعة المسلمين .

– مناظرة ابن عباس للخوارج :

كان الامام علي على ارجاعهم الى جماعة المسلمين ، فأرسل ابن عباس إليهم لمناظرتهم ، وقد روى ابن عباس تفاصيل ما جرى في تلك المناظرة قائلاً : دخلت عليهم – أي الخوارج – قالوا : فما جاء بك؟ ، قال : قد أتيتكم من عند صحابة النبي من المهاجرين والأنصار من عند ابن عم النبي وصهره وعليهم نزل القرآن ، فهم أعلم بتأويله منكم ، وليس فيكم منهم أحداً لأبلغكم ما يقولون ، وأبلغهم ما تقولون ، فانتحى لي نفر منهم ، قلت : هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله؟ ، قالوا : أما إحداهن : فإنه حكم الرجال في أمر الله وقال الله : (إن الحكم إلا لله) ، ما شاء الرجال والحكم؟ ، قلت : هذه واحدة ، وأما الثانية فإنه قاتل ولم يسبِ ولم يغنم ، فإن كانوا كفاراً لقد حل سبيهم ، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سبيهم لا قتلهم ، قلت : هذه اثنتان ، فما الثالثة؟ ، قالوا : محا نفسه من أمير المؤمنين (لم يذكر لقب أمير المؤمنين الى جانب اسمه في العهد أو الوثيقة بسبب رفض أهل الشام تلقب علي بأمير المؤمنين إذ وافق علي بعدم ذكر لقب أمير المؤمنين) ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين ، قلت : هل عندكم شيء غير هذا؟ ، قالوا : حسبنا هذا ، قلت لهم : أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسنة نبيه ما يرد قولكم أترجعون؟ ، قالوا : نعم ، قلت : قولكم : حكم الرجال في أمر الله ، فإني أقرأ عليكم من كتاب الله إن قد صير الله حكمه الى الرجال في ثمن ربع دهم ، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه أرأيتم قول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم)( ) ، أنشدكم بالله أحُكم الرجال في صلاح ذات البين وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ ، قالوا : بلى بل هذا أفضل ، قلت وفي المرأة وزوجها : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحماً من أهلها)( ) ، فنشدكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في امرأة أخرجت من هذه؟ ، قالوا : نهم ، قلت وأما قولكم : قاتل ولم يَسبِ ولم يغنم ، أفتسبون أمكم عائشة وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ ، فإن قلتم : إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم ، إن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم)( ) ، فأنتم بين ضلالتين فأتوا منها بمخرج ، افخرجت من هذه؟ ، قالوا : نعم ، فقال : وأما محا نفسه من أمير المؤمنين ، فأنا أتيكم بما تضرون ، إن النبي يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعلي : (أكتب يا علي ما صالح عليه محمد رسول الله) ، قالوا : لو نعلم إنك رسول الله ما قاتناك ، فقال رسول الله : " إمح يا علي ، اللهم إنك تعلم إني رسول الله ، إمح يا علي وأكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله " ، والله لرسول الله خير من علي ، وقد محا نفسه ، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة ، أخرجت من هذه؟ ، قالوا : نعم ، فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم ، فقاتلوا على ضلالتهم( ) .

– كلمة حق يبتغى بها باطل :

بعد مناظرة ابن عباس للخوارج استجاب ألفين منهم له إذ كلمهم الامام علي فرجعوا الى الكوفة ، لكنهم أي الخوارج العائدين زعموا أن علي تراجع عن التحكيم حتى وصلت الأخبار الى علي ، فخطب يوم الجمعة وذكرهم بما جرى ، فقام رجل من الموجودين فقال : لا حك إلا لله ، ثم قام آخر فقال : لا حكم إلا لله ، وقال آخر ، فأشار علي بيده اجلسوا ، نعم لا حكم إلا لله كلمة حق يبتغى بها باطل ، حكم الله انتظر فيكم( ) ، حتى قال علي لهؤلاء الجماعة : إن لكم عندنا ثلاثاً ، لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد ، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت ايديكم في أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا( ) .

وبذلك سلم لهم علي بهذه الحقوق ما داموا لم يقاتلوا الخليفة أو يخرجوا على جماعة المسلمين مع احتفاظهم بتصوراتهم الخاصة في إطار العقيدة الاسلامية ، فهو بذلك لا يرجهم بداية عن الاسلام ، فهو لم يضطهدهم ولم يحجر على حياتهم ، وكان حريصاً على إظهار الحق لهم ولغيرهم ممن قد ينخدع بارآهم ومظهرهم ومظهرهم .

وبعدما وصلوا الخوارج الى قناعة أن علي عازماً على المضي في مسألة التحكيم ، طلبوا منه الامتناع عن ذلك فأبى ذلك وبين لهم إن هذا يعد غدراً ونقضاً للإيمان والعهود ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً ، وق قال تعالى : (وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتهم الله عليكم كفيلا)( ) ، فقرر الخوارج الانفصال عن أمير المؤمنين علي ، وتعيين أميراً عليهم وهو عبد الله بن وهب الراسبي( ) .

– اجتماع الحكمين :

كان الموعد المحدد للاجتماع كما جاء في الوثيقة في رمضان عام ٣٧هـ ، إذ لم تحدث عوائق وبالفعل حصل الاجتماع في الموعد المقرر وقيل : في دومة الجندل ، وقيل : في أذرح وهي من أطراف الشام نحو العراق( ) ، وكان مع كل واحد منهما أي الحكمين مئات يمثلون وفدي العراق والشام( ) .

– تصادم المعقول بالمنقول (غفلة أبو موسى الأشعري ومكر عمرو بن العاص) :

إن أشهر الروايات التي ذكرت في هذا الباب توحي الى غفلة أبا موسى الأشعري رئيس وفد العراق يقابله مكر وخداع عمرو بن العاص رئيس وفد الشام ، والرواية تشير الى سؤال عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري قائلاً : ألست تعلم عثمان قتل مظلوماً؟ ، قال : أشهد ، قال : ألست تعلم معاوية وآل معاوية أولياءه؟ ، قال : بلى ، قال وما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى ، فأجابه أبا موسى بأن معاوية إذ جاز له أن يكون ولياً للمطالبة بدم قريبه عثمان فإنه لا يجوز له أن يطالب بالخلافة متجاوزاً المهاجرين الأولين من أصحاب رسول الله ( ) .

وإنهما تبادلا الآراء في موضوع الخلافة على أن يخلعا علياً ومعاوية ويختار المسلمين خليفة جديد .

وقد أشير الى أن عمرو بن العاص طلب من أبي موسى الأشعري أن يخرج الى الناس ويعلن لهم هذا الاتفاق ، ثم يقوم هو بعده بتأكيد ما تم الاتفاق عليه ، فتقدم أبو موسى الأشعري فقال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصلح ؟؟؟؟ ، ولا ألم لشعثها من أمر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ، ثم تنحى ، وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه ، فقال أبو موسى : ما لك لا وفقك الله غدرت وفجرت( ) .

إلا أن مثل هكذا رواية وبهذا المدلول تفضي الى وقوع أبو موسى الاشعري في حبال مكائد ومكر عمرو بن العاص الأمر الذي يبعث على الشك وعدم القبول بهذه الرواية من عدة أوجه :

١. ذكر ابن خياط ان الحكمين لم يتفقا أصلاً على شيء وافترق الناس دون اتفاق( ).

٢. كما أشار المسعودي الى أن الاتفاق بين الحكمين قد اقتصر على القول بأن الخليفة عثمان قد قتل مظلوماً ، وإن من حق معاوية أن يطالب بمعاقبة قتلته ، وإنهما لم يخطبا ولم يكن هناك خدعة أصلاً( ) .

٣. وينفي ابن العربي الروايات التي تتحدث عن مخادعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري في أثناء التحكيم ويقول : إن هذا كله كذب صراح ، وما جرى منه حرف فقط( ) .

٤. ومن غير المعقول أن يناقش الحكمان تحديد أسم المرشح للخلافة ، إذ طرح اسم عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمرو لم يكن هذا الموضوع ضمن وثيقة التحكيم ، والراجح إن الحكمين تناولا جوانب الخلاف بين علي ومعاوية وفقاً لما تضمنته وثيقة التحكيم ، وما تود ايحائه الرواية إظهار القضية بمظهر الخداع والتآمر على علي وحقه( ) .

٥. إن القول بأن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري الذي سارع الى إتهام ابن العاص بأنه أحجم عن تأكيد الاتفاق (غدرت وفجرت) ، لا يعكس الصور الصحيحة في الرواية التاريخية ، إذ لم يكن من السهولة على عمرو أن يخدع على هذا النحو شيخاً له تجربة طويلة في السياسة مثل أبا موسى الأشعري مهما بلغت الحنكة والبراعة في المناورة( ) .

٦. إن حياة أب موسى الأشعري منذ إسلامه ، إذ قضاها في نشر الإسلام وتعليم الناس والعلم لاسيما القرآن الكريم الذي اشتهر بقراءته والجهاد في سبيل الله ، والفصل بين الخصومات ونشر العدل ، وضبط الولايات في الإمارة والقضاء ، إذ تولى إمارة البصرة في عهد عمر ، فضلاً عن توليه القضاء الى جانب الإمارة في عهد عثمان ، ثم تولى ولاية الكوفة في عهد الامام علي ، فلا شك إن هذه المهام الصعبة ولسنوات طوال تحتاج الى مهارات وصفات فريدة من العلم والفهم والفطنة والحذق ، الى جانب الزهد والورع الذي كان يتمتع بهما ، والسؤال هل يتصور أحداً أن يثق رسول الله ومن ثم خلفاءه برجل يمكن أن تنطلي عليه مثل هذه الخدعة التي ترويها قصة التحكيم( ) .

٧. ليس من مهام ومسؤولية الحكمان خلع أو تثبيت خليفة حتى يكون الكتاب والسنة المجمع عليهما يوجبان الخلع ، وإن اختيار الخليفة منوط بأهل العقد والحل وبيعة الأمة وليس مرتبط بشخصين .

وعلى أي حال فقد فشلت المفاوضات ولم يصل الحكمان الى نتيجة وعاد كل طرف الى مصره دون اتفاق على شيء .

معركة النهروان :

ذكرنا إن الخوارج تسللوا الى النهروان بعد أن وجدوا علياً مُصر على المضي في قضية التحكيم ، وأخذوا يكاتبون أتباعهم في البصرة للالتحاق بهم فوافقوهم على رأيهم وساروا لمناصرتهم ، إذ بلغ عدد الملتحقين بهم قرابة خمسمائة رجل بقيادة مسعر بن فدكي التميمي ، فأصبح مجموع الخوارج المجتمعين في النهروان حوالي أربعة آلاف رجل( ) .

وبعد فشل التحكيم كتب إليهم الخليفة علي بن أبي طالب يدعوهم الى الانضمام إليه في محاربة أهل الشام فرفضوا دعوته وكتبوا إليه : " أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، فلما قرأ كتابهم آيس منهم ، فرأى أن يدعهم ويمضي بالناس الى أهل الشام حتى يلقاهم فيناجزهم "( ) .

بينما كان علياً يحشد أتباعه لمقاتلة أهل الشام بعد فشل المفاوضات ، جاءته الأخبار بأن الخوارج أخذوا يتعرضون لمن يخالفهم بالرأي بالقتل ، إذ قتلوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله وزوجته بطريقة بشعة ، وقتلوا نسوة آخرين ، فألم ذلك الخليفة علي ، وقد أتخذ القرار بمقاتلتهم بعد أن رفضوا تسليمه الجناة لمعاقبتهم وازدادوا

على ذلك بقتلهم مبعوثه الذي أرسله إليهم وبعثوا إليه قائلين : " كلنا قتلتم ، كلنا نستحل دماءهم ودماءكم "( ) ، لذا قرر علياً محاربة الخوارج والقضاء عليهم قبل التوجه للشام .

وبذلك فقد توجه الامام علي نحو النهروان بجيش كبير ، وقبل بدأ القتال منحهم الأمان لكل من يحب أن ينصرف عن مقاتلته ما لم يكن ارتكب دماً حرام ، فانصرف من الخوارج حوالي ألف ومائتي رجل ، فلم يبقى في ساحة المعركة منهم سوى ألفين وثمانمائة رجل أصروا على مقاتلته ، ودارت المعركة حتى قُضي على الخوارج عليهم جميعاً ولم يبقى منهم إلا أربعمائة رجل قد جرحوا في القتال فأمر الخليفة أن يؤسلوا الجرحى الى عشائرهم قائلاً : احملوهم معكم فداووهم ، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة ، وخذوا ما في عسكرهم من شيء( ) .

وبذلك تم توجيه ضربة ساحقة الى حركة الخوارج ولم يعد بإمكانهم تحدي الخليفة علي بن أبي طالب وجهاً لوجه ، وإن المعركة قد حصلت في شعبان سنة ٣٨هـ على أشهر الأقوال( ) .

إلا أن أمر الخوارج لم ينتهي في النهروان فكانت هناك بعض المحاولات الجادة لنشر أفكارهم بعد النهروان واستقطاب المئات الى جانبهم لاسيما الموالي من غير العرب ، إذ دخلوا على الخط وعلى الرغم من سيطرة علي على الوضع تجاه الخوارج وتصفيتهم وتشتيت شملهم ، بيد إن هذه المجاميع قد اضعفت جيش علي بسبب المواجهات والصدامات على الرغم من انتصار هـ في جميعها ، إلا أن هذا الفكر لم ينته بل تبنى اغتيال علي أشقاهم هذا الحادث في رمضان سنة ٤٠هـ .

تصدع جبهة العراق بعد النهروان :

من الانتكاسات الداخلية التي وقعت في عهد الامام علي خروج بعض المدن عن طاعته لاسيما أحد قادته وتباعه (الخريت بن راشد) وهو من أتباع الامام علي ، التحق به مع ثلاثمائة رجل من قومه بني ناجية قدموا معه من البصرة ودخلوا مع الامام علي في الجمل وصفين والنهروان ، فلما كان التحكيم وظهرت نتائجه رفض ابن راشد الأمر وخرج عن طاعة الخليفة ومن تبعه ، واتجه بهم الى الأحواز وتابعهم في دعوتهم بعض أهل الأحواز فامتنعوا عن دفع الخراج ، فأرسل إليهم علياً جيشاً من الكوفة تحت قيادة معقل بن الخريت الى العودة الى بلاده في البحرين وضم إليه بعض أهلها وكانت النتيجة إن قضي على الخريت بن راشد في البحرين وتشتيت أتباعه( ) .

الى جانب ذلك استغلت بعض الأمصار انشغال علي في محاربة الخوارج ، فأعلنت الخروج على طاعة الخليفة وعدم دفع الزكاة لاسيما في خراسان في نيسابور وكرمان ، إذ أخرجوا عمال علي منها ، فما كان من علي إلا أن عين زياد بن أبيه والياً عليهم ووجهه في أربعة آلاف فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا( ) .

س: ما موقف الروم البيزنطيين من حروب المسلمين؟

أما موقف الروم فقد حاول ملك الروم استغلال الخلاف الحاصل بين المسلمين وطمع في ضم بعض الأراضي التي تحت هيمنة معاوية إليه ، زحف ملك الروم تجاه تلك الحدود ، فكتب إليه معاوية : والله لئن لم تنتهِ وترجع الى بلادك يا لعين لاصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك مع جميع بلادك ، ولاضيقن عليك الأرض بما رحبت ، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف وبعث يطلب الهدنة( ) .

– امتداد سلطان معاوية لمصر :

في غضون تفكك الجبهة الداخلية العراقية استغل معاوية هذا الأمر حتى أرسل جيشاً الى مصر بقيادة عمرو بن العاص إذ سيطر عليها وضمها الى الشام وساعده في ذلك عدة أسباب منها :

١. انشغال علي بالخوارج .
٢. عامل علي على مصر محمد بن أبي بكر لم يكن على قدر من الدهاء مسلفه قيس بن سعد بن عبادة ، فدخل في حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يسايسهم كما صنع الوالي الذي سبقه فهزموه .

٣. اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان في مصر الرأي ساعده في السيطرة عليها( ) .

٤. بُعد مصر عن مركز أمير المؤمنين علي وقربها من الشام .

٥. طبيعتها الجغرافية فهي متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء ، وتمثل امتداداً طبيعياً لها ، إن سيطرة معاوية على مصر أضافت له قوة بشرية واقتصادية كبيرة.

في المقابل وعلى الرغم من تدهور الحال لم يستسلم علي لهذه الظروف وأخذ يبذل قصارى جهده في انتهاض جيشه لمواجهة أهل الشام على الرغم من ظهور التقاعس والخذلان في صفوفهم ، إلا أن أفراد جيشه بدأ ينسلوا من معسكره في النخيلة قرب الكوفة بحجة الراحة وشحذ الاسلحة( ) .

وهكذا تخلوا الكوفيين عن الامام علي في أحرج لحظات المواجهة مع معاوية ، فتركوه بكل بساطة وهم منهمكون من التعب الداخلي والنفسي ، وبالتالي أثارة هذه التطورات غضب الامام علي فحنق على أهل الكوفة لخذلانهم له ، وع المرير مما دفعه الى تأجيل قراره بمهاجمة الشام ، واعتكف في عاصمته ، وطوى مشاريع القتال بانتظار ظروف أفضل ، لاسيما وإن نفوذ معاوية بدأت تزداد نحو مكة والمدينة وبعض الأمطار الاسلامية .

احراقه لمن ادعوا فيه الالوهية

قيل لعلي : إن هنا قوماً على باب المسجد يدعون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم : ويلكم ما تقولون؟ ، قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ، فقال : ويلكم إنما عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ، وإن أطعت الله أثابني إن شاء الله وإن عصيته خشيت أن يعذبني فأتقوا الله وارجعوا ، فأبوا فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام ، فقال : ادخلهم ، فقالوا كذلك ، فلما كان اليوم الثالث ، قال : لئن قلتم ذلك لاقتلنكم بأخبث قتلة ، فأبوا إلا ذلك فخد لهم أخدوداً بين المسجد والقصر ، وقال : إني طارحكم فيها أو ترجعوا ، فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها ، حتى احترقوا( ) .

استشهاد الامام علي :

لما رأى علي بن أبي طالب خذلان قومه له ، كره الحياة وتمنى الموت ، وكان يتوجه الى الله بالدعاء ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته ، فمما روى عنه أنه خطب يوماً فقال : اللهم إني سئمتهم وسئموني ، ومللتهم وملوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني ، فما يمنع اشقاهم أن يخضبها بدم ، ووضع يده على لحيته( ) ، وهنا إشارة الى عهد رسول الله لعلي إذ أخبره بكيفية قتله قائلاً : " لتخضبن هذه من هذه وأشار الى لحيته ورأسه "( ) .

اجتماع المتآمرين :

ورد أن عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن أبي بكر التميمي اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس ، عابوا على ولاتهم ، ثم ذكوا أهل النهروان فترحموا عليهم ، وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً ، اخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم ، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسهم فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم

فأرحنا منهم البلاد ، وثأرنا بهم إخواننا ، فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ، وكان من أهل مصر ، وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو بن أبي بكر : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص( ) ، فتعاهدوا على ذلك وتعاقدوا لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي سمي ويتوجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فاستعدوا لذلك ، إذ توجه كل رجل منهم الى المصر الذي فيه صاحب ، إذ كان الموعد فجر السابع عشر من رمضان( ) .

وكان يوم التنفيذ بيد أن عمرو بن العاص نجا من صاحبه إذ لم يحضر صلاة الصبح لوعكة ألمت به ، أما معاوية فقد أصيب بجرح خفيف لم يلحق به آذى كبير( ).

أما ابن ملجم فقد توجه الى الكوفة ، فأخبر أصحابه فيها بمقصده والتقى عبد الرحمن بن ملجم شبيب الاشجعي ، فاعلمه ما يريد ودعاه الى أن يكون معه فأجابه الى ذلك( ).

وقد كمن هذا الشخصان للخليفة قبل صلاة الصبح ومعهما سيفاهما في المسجد مقابل السدة التي يخرج منها عادة ، فلما حان وقت الصلاة خرج الامام علي الى المسجد فاعترضه الرجلان ، فقال بعض من حضر ذلك ، فرأيت بريق السيف ، وسمعت قائلاً يقول : لله الحكم يا علي لا لك ، ثم رأيت سيفاً ثانياً فضربا جميعاً ، فأما سيف عبد الرحمن بن ملجم فأصاب جبهته الى قرنه ووصل الى دماغه ، وأما سيف شبيب فوقع في الطاق وسمعت علياً يقل : لا يفوتنكم الرجل ، وشد عليها الناس من كل جانب ، فأما شبيب فأفلت وأخذ عبد الرحمن بن ملجم فأدخل على علي فقال : اطيبوا طعامه وألينوا فراشه فإن أعش فأنا أولى بدمه عفواً أو قصاصاً ، وإن مت فالحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين( ) .

وكشف الطبيب على جرح الامام علي فإذا الضربة قد وحلت الدماغ فقال الطيبي : يا أمير المؤمنين أعهد عهدك فإنك ميت( ) ، وقد أوصى الامام علي الحسن والحسين (عليهما السلام) في تقوى الله ولزوم أوامره وقولا الحق ، وارحما اليتيم واصنعا للآخرة ، واعملا بكتاب الله ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم( ) .

ولم يمكث أمير المؤمنين بعد إصابته في يوم الجمعة إلا ليلية السبت ثم خرجت روحه الشريفة ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٤٠هـ ، وقيل : لتسعة بقين من رمضان عن عمر ناهز الثالثة والستين سنة ، وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاث أشهر( ) .

خلاصة القول :

١. لم يكن الامام علي شخصية عابرة أو اعتيادية في تاريخ الرسالة والاسلام ، كيف لا إذ تربى على يد خير معلم للبشرية ، كيف لا وهو أسد الله الغالب أشجع الناس وأفقههم واقضاهم ، كيف وهو زوج بضع الرسول وأب سيدا شباب أهل الجنة ، كيف لا وهو باب مدينة العلم ، كيف لا ومات شهيداً في رمضان .

٢. شاء قدر الله عز وجل أن يجعل عهده من أشد عهود الفتن في القرن الهجري الأول ، فكانت حادثة مقتل عثمان أفرزت يوم الجمل وصفين ، وصفين أخرجت الخوارج وبذلك بدأت صفحة جديدة في سجل التاريخ الاسلامي ملطخة بلون الدم ما زالت تقطر دماً الى يومنا هذا .

٣. إن المتتبع لمواقف الخوارج وانقلابهم من أقصى درجات التأييد لعلي والدفاع عنه الى أقصى درجات التمرد عليه والتربص به حتى ذهب ضحية لتطرفهم ، فهم – أي الخوارج – كانوا أجلاف البادية وقساة الاعراب ، فكانوا لابد أن يستسلموا لرعوناتهم النفسية وجلافتهم الطبيعية ، وقد تجلى ذلك في تكفيرهم علياً بسبب قبوله التحكيم ولا يزال آثار هذا التطرف ممتدة الى عصرنا هذا ، فهواية التكفير لأبسط الأسباب إنما تمثل عقلية التطرف هذه ، وهي عقلية ترفض العلم وتتمرد على قواعده وضوابطه( ) .

إن ما جرى بين الصحابة خلال الخمس سنوات من عهده لهو أراً جلل إذ سقطت الاف من المسلمين بين الجمل وصفين والنهروان ، إلا أن هذا لا يترك الحبل على غاربه بما تشتهي الالسن في التجريح ، فمن المعلوم إن الخليفة الشرعي بعد عثمان هو الامام علي ، وإن معاوية كان يمثل في تمرده عليه طرف البغي ، ثم نكل الأمر لله

الفصل الخامس

الحسن بن علي بن أبي طالب خامش الخلفاء الراشدين

اسمه ومولده :

هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم المدني الشهيد( ) ، سبط رسول الله وريحانته من الدنيا ، سيد شباب أهل الجنة ، ابن الزهراء فاطمة بضعة الرسول ، وأبوه فارس المشارق والمغارب اسد الله ورسوله علي بن أبي طالب ، حفيد خديجة الكبرى (رضي الله عنها) ، ولد في رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وقيل ولد في شعبان( ) .

وعن اسمه قال علي : لما ولد الحسن سميته حرباً ، فجاء النبي فقال : رني بني ما سميتموه؟ ، قلنا حرباً ، قال : لا ، بل هو حسن ، فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فحاء النبي ، فقال روني أبني ما سميتموه؟ ، قلنا : حرباً ، قال : بل هو حسين( ) .

ولم يعرف اسم الحسن في الجاهلية( ) ، ابن أبني هذا سيد ، وقد لقبه رسول الله بالسيد ، إذ قال : " إن هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين "( ) .

الحسن في عهد جده النبي :

كان رسول الله قد أحب الحسن والحسين حباً جماً ، فكان يحملهما ويداعبهما ، وترعرع الحسن في حجر النبي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : " من أحب الحسن والحسين فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني "( ) .، وقال النبي ، عن الحسن : " اللهم إني أحبه ، فأحبه وأحب من يحبه "( ) ، وقال البراء بن عازب : " رأيت الحسن بن علي على عاتق النبي وهو يقول : اللهم إني أحبه فأحبه "( ) .

وذكر إن رسول الله يخطب ، إذ أقبل الحسن والحسين (عليهما السلام) عليهما قميصان أحمران يمشيان ويتعثران ، إذ نزل رسول الله عن المنبر فرفعهما إليه وقال : صدق الله : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)(التغابن : ١٥) ، نظرت الى هذين الصبيين يمضيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما( ) .

الحسن شبيه رسول الله :

عن هانئ بن هانئ قال : الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر الى الرأس( ) ، وقال ابن عباس ، عن الحسن : أنه كان يشبه رسول الله ( ) ، وقال الزهري ، عن أنس قال : لم يكن أحد أشبه بالنبي من الحسن بن علي( ) .

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا النبي من الدنيا :

غن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله : " الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة "( ) ، رسول الله عن الحسن والحسين : " رحيانتي من الدنيا "( ) .

أهل الكساء :

روت عائشة (رضي الله عنها) فقالت : خرج النبي غداة وعليه مرط مرحل (كساء من صوف) ، فأدخل علياً وفاطمة والحسن والحسين ، وقال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)(الاحزاب : ٣٣) ،

وهنا ملمح إن السيدة عائشة هي من تروي الحديث وتظهر فضل آل علي وفاطمة بعكس ما يقال من أن هناك عدم انسجام بين الطرفين والله أعلم .

الحسن في عهد الخلفاء الراشدين :

لقد كان الحسن طفلاً صغيراً في عهد أبي بكر الصديق ، إذ بلغ عمره سبع سنوات ، ومما لا شك فيه أنه بهذا العمر يدرك الأشياء وعاصرها ، وإنه يكن له المحبة ، وقد سمي الحسن أحد أبناءه أبي بكر( ) .

وكان لعمر بن الخطاب نظرة حب وتقدير للحسن والحسين (عليهما السلام) ، فكان يقول للحسين : أي بني لو جعلت تأتينا تغشانا( ) ، وعندما فتحت المدائن عام (١٦هـ) جاءت الأموال ، فقام عمر بإعطاء الحسن والحسين (عليهما السلام) ألف درهم لكل واحد منهما ، في حين أعطى لأبنه عبد الله خمسمائة ، وهو تفضيل واضح لسبطي رسول الله على أبناءه( ) .

والمعروف علاقة عمر بن الخطاب بعلي بن ابي طالب طيلة عهده ، وكيف كان علي مستشاراً لعمر ، وهذا يعكس نوع العلاقة التي تجمع الاثنين ، الأمر الذي يأخذ بالحسبان في نظرة الحسن لعمر .

وفي عهد عثمان بن عفان قال الحسن : من بين المشاركين في فتوح أفريقيا ، فكان ضمن ما بعدف بجيش العبادلة الذي ضم عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ، وأبو ذر الغفاري ، إذ استشهد عدد كبير منهم في هذه المعارك( ) .

وحين اشتد الحصار على بيت عثمان في فتنة مقتله ، أرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان ، ومن هؤلاء : الحسن والحسين ابنا علي ، ومع اشتداد الحصار على عثمان أقسم على الحسن بالرجوع الى منزله وذلك شية عليه أن يصاب بمكروه قائلاً : " أرجع يا ابن أخي حتى يأتي الله بأمره "( ) ، وقد جرح الحسن وبعض الحراس( ) .

الحسن في عهد والده علي بن أبي طالب :

كان الحسن دعا أبيه الى الخروج من المدينة في فتنة عثمان وبعد مقتله ، كان يرى أن تأتي البيعة من الأمصار لوالده ، فضلاً عن ذلك كان الحسن مع فكرة عدم الخروج الى جيش البصرة ، وقد رد الامام علي قائلاً : إذ لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟( ) .

مواقفه في المحن العسكرية :

وعن أيام معركة الجمل كان الحسن وعبدالله بن عباس رسولا أمير المؤمنين علي الى الكوفة لاستنفارهم الى جيش علي ، وقد نجحا في المهمة بعد أن فشل كل من أرسله علي من قبل للمهمة نفسها( ) .

وكان الحسن ذو تأثير كبير في الناس إذ وقف خطيباً فيهم قائلاً : أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى إخوانكم ، فإنه يوجد لهذا الأمر ما ينفر إليه ، والله لأن يليه اولو النهى ... فأجيبوا دعوتنا وأعنونا على ما ابتلينا وابتليتم ، وقد لبى كثير من أهل الكوفة وخرجوا الى علي ما بين ستة الى سبعة آلاف رجل( ) .

ومن الأحداث الكبيرة التي شهدها الحسن في عهد والده معركة صفين وأحداثها وما تلاها من أحداث والمتمثلة بالتحكيم وما نتج عنها من ظهور الخوارج ومعركة النهروان حتى استشهاد الخليفة علي في رمضان سنة (٤٠هـ) على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم ، وأوصى علي أبنه الحسن بحق قاتله قائلاً : إن مت فأضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل ، فإني سمعت رسول الله يقول : " إياكم والمثلة ولو نها بالكلب العقور "( ).

تولي الحسن بن علي الخلافة :

بعد مقتل علي صلى عليه الحسن ، ودفن بالكوفة ، وقد اختار الناس الحسن بعد والده وبايعوه بالخلافة في الكوفة في رمضان سنة (٤٠هـ)( ) ، وكان أول من بايع الحسن قيس بن سعد بن عبادة إذ قال للحسن : أبس يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ، وقتال المحتلين ، فقال له الحسن : على كتاب الله وسنة نبيه ، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط ، فبايعه وسكت ، وبايعه الناس ، وقد اشترط على أهل العراق عندما أرادوا بيعته قائلاً : تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت( ) ، وباشر سلطته كخليفة ، فربت العمال ، وأمر الأمراء ، وجند الجنود ، وفرق العطايا ، وزاد المقاتلة في العطاء مائة مائة فأكسب بذلك رضاهم( ) . وفي الوقت نفسه بويع معاوية خليفة للمسلمين في الشام .

أما من النواحي الإدارية فإن الظروف التي تلت مقتل علي بن أبي طالب وتولية الحسن كانت معقدة ، إذ لا زال الصراع قائماً مع معاوية ، لذلك لم يكن لدى الحسن متسع من الوقت لإجراء تغييرات إدارية ، فأقر عمال أبيه على ولاياتهم ، عدا الكوفة إذ ولي عليها المغيرة بن نوفل( ) .

الاستعدادات العسكرية للحسن :

تشير الروايات إن أهل العراق بعد مبايعة الحسن دعوه الى مقاتلة أهل الشام ، إذ قالوا : سر الى هؤلاء القوم الذين عصوا الله ورسوله وارتكبوا العظيم وابتزوا الناس أمورهم ، فإنا نرجو أن يمكننا الله منهم ، فسار الحسن الى أهل الشام وجعل على مقدمته قيس بن سعد بن عبادة في اثني عشر ألف( ) ، ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً بحسب ما يرى ابن كثير : أنهم غلبوه على رأيه( ) .

وسار الحسن بالجيش قاصداً بلاد الشام ، فلما اجتاز المدائن نزلها وقدّم المقدمة بين يده ، وقد أظهر الحسن حنكة كبيرة دلت على سعة أفقه وبصيرته عندما لم يشأ أن يواجه أهل العراق من البداية بميله الى مصالحة معاوية ، لأنه يعرف طبيعتهم وتهورهم ، فأراد أن يقيم من مسلكهم الدليل على حذق نظرته فيهم ، فوافقهم على المسير لحرب معاوية وعبء جيشه( ) .

وكان خروج جيش العراق نحو الشام في صفر سنة (٤١هـ) ، ولما وصلت الأخبار الى معاوية عن توجه جيش العراق نحوه ، خرج من الشام لملاقاة أهل العراق حتى نزل (منيح) وهي قرية في الجزيرة الفراتية التي وصلها بعد ستة أيام من مسيره( ) .

عملية الاغتيال الثانية للحسن :

كانت المحاولة الأولى لاغتيال الحسن إذ طعن في الكوفة من قبل حتى تعافى من جروحه ، أما الثانية فبينما كان الحسن في المدائن نادى منادٍ من أهل العراق : إن قيس بن سعد قائد جيش الحسن قُتل ، فشاعت الفوضى في الجيش وعادت الى أهل العراق طبيعتهم في عدم الثبات ، حتى وصل الأمر بهم الى الاعتداء على الحسن نفسه ، إذ عمت الفوضى في صفوف الجيش فاعتدوا على سرداقه ونهبوا متاعه ، إذ وصل الأمر الى منازعته على بساطاً كان تحته ، حتى طعنوه وجرحوه ، فلما رأى الحسن صنع أصحابه أيقن أن لا فائدة منهم ، ولا نصر يرجى على أيديهم ، وقد كانت قناعته منذ البداية أن لا فائدة من أهل العراق في هذا الجانب ، فكان ما جرى أحد أكبر الأسباب لتعجيله الصلح مع معاوية( ) .

الصلح مع معاوية :

كان الحسن حريصاً كل الحرص على حقن دماء المسلمين ، وكان ميالاً للسلم ومقدمه على الحرب ، ولم يكن ذلك من ضعف بل وجد أن الأمر لم يجري إلا نحو هدراً من دماء المسلمين ، الى جانب ذلك ما وجده من أهل العراق من تقلبهم وأمزجتهم ، فضلاً عن خذلانهم لأبيه من قبل وهو من بعد ، وكان وما لاشك فيه أن حديث رسول الله

بحقه أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين ، وهو وسام قلده إياه جده وشرف ما بعده شرف ، فكانت وفود معاوية تتواصل مع الحسن في هذا الشأن حتى تم الاتفاق على جملة شروط بموجبها يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية .

شروط الصلح :

أولاً . العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء :

كان من شروط الحسن للصلح أن يعمل معاوية بن أبي سفيان في الناس بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين المهدين ( ) .

ثانياً . العفو العام :

تضمن عقد الصلح أن يعلن العفو العام ، فإن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ أحداً منهم بهفوة أو أحنة ، وورد أن الحسن أبلغ وفد معاوية المفاوض قائلاً : إن هذه الأمة عاثت في دمائها( ) .

وإن اشترط على معاوية أن لا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء ، ومنذ ذلك الوقت تُرك الطلب بدم عثمان وتم الاتفاق على عدم مطالبة أحداً بشيء ، إذ كان التركيز على فتح صفحة جديدة في تاريخ المسلمين وإنهاء الاقتتال الإسلامي الإسلامي والاتفاق على الالتزام بالشرع ، فيكون الصلح على أساس العفو المطلق لكل ما بدر من الفريقين ، وهو ما حصل إذ لم يعاقب معاوية أحداً بعد توليه السلطة جراء ذلك الاتفاق ، ما جعل من الهدوء والاستقرار يشيع بين صفوف المسلمين .

ثالثاً . ولاية العهد :

أشار بعض المؤرخين الى أن الاتفاق تم على أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن( ) ، وعند التأمل ففي هذه الرواية نجد أنها غير مقنعة وتتنافى مع الواقع ، فكيف يتنازل الحسن عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وابتغاء مرضاة الله ، ثم يوافق على أن يكون تابعاً يطلب أسباب الدنيا؟ ، إذ سأل الحسن أن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة؟ ، فقال : كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت ، فتركتها ابتغاء مرضاة الله( ) .

إذن إن كان الحسن يريدها لماذا سلمها لمعاوية أصلاً ، فضلاً عن ذلك لو كانت هناك نية لتولي الأمر مرة أخرى لكان الأجدر أن يتسلم الحسن إدارة إحدى أقاليم الدولة الإسلامية لا أن يذهب الى المدينة ويعتزل السياسة .

رابعاً . الأموال :

ذُكر إن من شروط الصلح أن يترك معاوية الأموال التي أصابها الحسن من بيت المال لتوزيعها على من معه ، فضلاً عن ديون كانت بذمته ، إذ أراد الحسن ابتغاءً لأولئك مالاً المحاربين الذين كانوا معه يوزعه بينهم ويبقي لمعيشته له ولأهل بيته وأصحابه( ) .

إن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد في تخفيف شدة التوتر في تلك الفترة ، وبهذا الشرط تم الصلح بين الطرفين .

مسيرة معاوية نحو الخلافة :

لما أراد الحسن المسير من المدائن الى الكوفة جاءه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة قد أرسلهما معاوية بكتاب الصلح والموافقة على الشروط ، وبعد ذلك سار معاوية من مسكن الى النخيلة وهو موقع قرب الكوفة ، ثم خرج الحسن من الكوفة نحو النخيلة ليقابل معاوية ويسلم الأمر له ، والتقى الاثنان وبعد اللقاء خطب الحسن

في الناس قائلاً : أما بعد فإن أكيس الكيس التقوى ، وإن أحمق الحمق الفجور ، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية أما كان حقاً لي تركته لمعاوية إدارة صلاح هذه الأمة وحقن دمائهم ، أو يكون حقاً هو أولى به مني تركته لذلك( ) ، وتلا الآية : (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) (الأنبياء:١١١) .

وهكذا بايع الحسن معاوية ، ثم بايع قائد جيشه قيس بن سعد( ) ، وبذلك كانت البيعة الخاصة ، إذ سار معاوية الى الكوفة ونزل بها في قصر الإمارة ، وكانت البيعة العامة ، وقد كانت خطب قصيرة للحسن ولمعاوية ، ولما تم الصلح برز الحسن بين الجموع وقال : إني قد اخترت ما عند الله وتركت هذا الأمر لمعاوية ، فكبر الناس فرحاً واختلطوا من ساعتهم( ) .

وهكذا استحصل معاوية بين أبي سفيان الخلافة ، فاستهل بذلك عصر جديد هو العصر الأموي ، فصارت له السيادة على جميع ولايات الدولة العربية الإسلامية ، وسمي العام الذي اعتلى في الخلافة وهو عام (٤١هـ) (عام الجماعة) ، لاجتماع الكلمة على خليفة واحد للمسلمين بعد فرقة وحروب استمرت سنوات .

الحسن بن علي بعد الصلح :

ترك الحسن الكوفة بعد تنازله لمعاوية ورجع الى المدينة المنورة ومعه أصحابه وبني هاشم ، حيث استقروا بها ، وما زال من بقي من الصحابة موجود في المدينة ، فضلاً عن التابعين الذين تربوا على جيل الصحابة ، إذ برز منهم عدد من العلماء ، وكان للحسن علاقة طيبة مع معاوية بعد تولي الأخير الخلافة ، إذ كان بعض الزيارات قام بها الحسن الى الشام ولقاء معاوية ، فضلاً عن العطايا التي خص بها الحسن من قبل الخليفة الجديد( ) ، وقد خصص معاوية عطايا سنوية للحسن والحسين (عليهما السلام) وبعض أهل بيتهم( ) .

وفاته :

ذكرت بعض الروايات التاريخية إن الحسن توفى متأثراً بالسم الذي وضع له ، وأشارت الروايات ذاتها بأصابع الاتهام الى زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وقد مرض جراء ذلك قرابة ربعين يوماً حتى توفى( ) ، وقيل : إن يزيد بن معاوية هو من أمر جعدة بسم الحسن( ) ، وقد أثيرت الشكوك حول هذه الراوية لاسيما إن الحسين قد جهد في معرفة من وضع السم سائلاً الحسن عن ذلك إلا أنه لم يخبره قائلاً : الله أشد نقمة إن كان الذي أظن ، وإلا فلا يقتل بي والله بريء( ) .

وقد أوصى أن يدفن عند النبي إلا أن تخاف فتنة ، فينقل الى مقابر المسلمين ، فأستأذن الحسين عائشة ليدفن الحسن في بيتها عند رسول الله ، فقالت : نعم وكرامة ، فلما توفى أرادوا دفنه عند النبي كما أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بني أمية وشيعتهم ومنع ذلك فأراد الحسين المواجهة فقيل له : إن أخاك قال : إذ خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين ، وهذه فتنة ، فسكت ، فدفن في البقيع الى جانب أمه فاطمة الزهراء (عليها السلام)( ) .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة الحسن ، فقيل : سنة (٤٩هـ)( ) ، وقيل : سنة خمسين( ) ، وقيل : سنة (٥١هـ) وهي أشهر الروايات ، توفى وعمره ثمان وأربعون سنة( ) .

س: هل الحسن من الخلفاء الراشدين :

اختلف العلماء والمؤرخين بشأن هذا السؤال ، إذ أن أغلبهم لم يعد الحسن خامس الخلفاء الراشدين مستندين بذلك لعدم وجود اجماع الأمة على خلافته والبيعة له ، لاسيما إن الشام بايعت معاوية خليفة للمسلمين بعد استشهاد علي بن ابي طالب ، وخضعت جميع بلاد الشام ومصر الى سيطرة معاوية ، فكان خليفتين في آن واحد وبذلك لم يعد معاوية والحسن ضمن فترة ما بعد مقتل علي خلفاء إلا بعد اجماع المسلمين على خليفة واحد سنة (٤١هـ) ، وهو ما عرفن بعام الجماعة لإجماع المسلمين على خليفة واحد .

ومن العلماء من يعتبر خلافة الحسن ما هي إلا امتداد لخلافة أبيه علي بن أبي طالب وليست خلافة منفصلة .

إلا أن هناك رأي آخر يشير بوضوح الى أن الحسن بن علي هو الخليفة الراشدي الخامس ، وهو ما راجح لدينا من خلال الأدلة الآتية :

قال رسول الله : الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ، ثم ملم بعد ذلك( ) ، وعند أبي داود ورد الحديث : " خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملك من يشاء أو ملكه من شاء "( ) .

وقد أجمع أغلب العلماء نسبة الى هذا الحديث أن الأشهر التي قضاها الحسن في الخلافة بعد موت أبيه كانت داخلة في خلافة النبوة ومكملة لها .

وقال القاضي عياض : لم يكن في الثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدين الأربعة والأشهر التي بويع فيها الحسن بن علي( ) .

والأمر نفسه ذكره ابن كثير إذ قال : كملت الثلاثون سنة بخلافة الحسن فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ، وذلك يكون كمال ثلاثين سنة من وفاة رسول الله ، فإنه توفى في ربيع الأول سنة إحدى عشر من الهجرة ، وهذا من دلائل نبوته ( ) .

وقال البعض : أن الحسن آخر الخلفاء الراشدين بنص جده : ولي الخلافة بعد مقتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة فأقام بها سنة أشهر وأياماً ، خليفة حق وإمام عدل وصدق تحقيقاً ، أخبر به جده الصادق المصدوق الخلافة بعدي ثلاثون سنة فإن تلك الستة أشهر هي المكملة لتلك الثلاثين .

خلاصة القول :

١. يعد الحسن بن علي أحد مصلحي أمة الإسلام وإحدى دلائل نبوة الرسول الكريم الذي قال فيه : " إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين " ، فعندما تنازل من الخلافة كان بذلك إصلاحاً لذات البين وحقن الله به دماء المسلمين .

٢. كان أماماً عدلاً وصدق ، وهو خامس الخلفاء الراشدين ومكمل الثلاثين سنة التي أشار إليها النبي قائلاً : " الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك ".

٣. لم تدم خلافته إلا أشهر معدودة لم يكن فيها من إصلاحات إدارية وعسكرية إلا أنها كانت حجر الأساس لاستقرار الأمة الإسلامية والخروج من آفة الفتن .

٤. عاش الحسن بعد تنازله عن الخلافة ما يقارب العشر سنوات ، حيث الى مسقط رأسه المدينة المنورة واعتزل الحياة السياسية ، إلا أنه التقى عدة مرات بمعاوية وكان له عطايا من الخليفة .

٥. كانت مسيرة حياته مليئة بالتحديات فكان له موقف الذود عن عثمان حين حوصر في داره حتى جرح ، اتبعها مشاهد الجمل وصفين والنهروان ، وما أريق فيها من دماء حتى توجت معاناته حين خلافته لاسيما خذلانه من قبل أهل الطرق ومحاولات الاغتيال التي تعرف لها فكانت نهايته مسموماً .

٦. وفاته وبحسب أغلب الروايات سنة (٥١هـ) إذ عاش ثمان وأربعين سنة ودفن في مقبرة البقيع جوار أمه فاطمة الزهراء (عليها السلام) .

خلاصة الخلاصة :

١. لم يتولَّ أحد من الراشدين أمر المسلمين بفرض نفسه عليهم ، بل كانت الشورى والإجماع هو الأساس ، وإن كانت الشورى قد أخذت صوراً مختلفة ، إلا أنها بقيت في الإطار العام كما هو معروف .

٢. كانت الخلافة لا تتم لأحد منهم إلا بعد أخذ البيعة من المسلمين .

٣. الأمة مسؤولة عن محاسبة الخليفة في كل تصرفاته وإبداء الرأي في ذلك ضمن أطر حددها الإسلام ، فمبدأ محاسبة الحاكم وحق الأمة في مراقبته قرره الخلفاء بأقوالهم وأفعالهم ، أبو بكر الصديق يقول : فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني( ) ، وعمر يقول : أحب الناس إليَّ من رفع إليَّ عيوبي( ) ، وما قاله عثمان : إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيد فضعوهما( ) ، وقال الإمام علي : إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حف إلا من أمرتم أنه ليس لي أمراً دونكم( ) .

٤. هناك إجراءات إدارية وتنظيمية لا نصر فيها فصلها الخلفاء ضمن إطار الشورى ، إذ جمع القرآن أبي بكر ، ورأي عمر في أرض السواد وديوان الجند أو العطاء ، الى عثمان الذي وحد قراءة القرآن على حرفاً واحداً( ) ، فيما رأي الإمام علي أن يحارب أهل الشام حتى يعودوا الى حاضرة الخلافة ، ونجد الحسن اجتهد في التنازل عن الخلافة لحقن دماء المسلمين .